صورٌ من التناسُب في الحديث الشريف

سلامة جمعة علي داود

أستاذ مساعد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

"المناسبةُ أمرٌ معقول، إذا عُرِضَ على العقول،
تَلَقَّتْهُ بالقَبُول"

البرهان للزركشي ١/٣٥

مقدمة

اللهم لك الحمد ؛ خلقتَ الإنسان واستودعتَه سراً من أسرارك لا يعلمه إلا أنت، " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً " (الإسراء٨٥)، وسَمَّيْتَ القرآن رُوْحاً من أمرك ؛ نسألك بما حجبتَ عنا من معرفة أسرار الرُّوْح السارية فى أجسادنا، أن تُبَصِّرَنا بمعرفة أسرار الرُّوْح الساريةِ فى كتابك العزيز، والساريةِ فى كلام خير خلقك والمصطفى من بَرِيَّتِك سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ، والساريةِ فى كُلِّ كلامٍ بليغٍ جَرَى به هذا اللسانُ العربىُّ المبين ٠

اللهم وصلِّ وسلِّمْ وبارك على أشرف خلقك وأسعد خلقك، سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ،وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، عدد ما خلقتَ، وعدد ما أنتَ خالق، عدد كل نفَسٍ وطَرْفَةِ عين،يا أرحم الراحمين٠

وبعد .....

فإن التناسب سر من أسرار الجمال وعنصر من عناصر الكمال، بوجوده تتعارف الأشياء وتتآلف، وبعدمه تتنافر وتتناكر، وتتقاطع وتتدابر ٠

والتناسب لُحْمَةٌ كلُحْمَةِ النَّسَب ؛ ومن النَّسَبِ اشْتُقَّ ؛ لأن الكلام فيه من أواصر الرَّحِم والقُرْبى مثل ما يكون فى الأفراد يجمعهم نسب واحد٠

إن العلاقات التى تجمع الأشياء من أحوج ما يحتاج إلى الفكر لإدراك وجوه الشبه والالتقاء بينها، واستلال الخيوط التى تربط أجزاء الكلام، وقد يربط الكلامَ على طوله خَيطٌ واحد، وقد تربطه خيوطٌ ووشائج كثيرة، وهذا النمط الأخير كثير جدا فى الذكر الحكيم وفى كلام المصطفى ﷺ، وكلما أنعم الدارسُ النظر تَكَشَّفَ له عن خيط جديد، وكلما صفت النفوس ورقَّت وارتقت فى مدارج القُرْب رأت من ذلك أسرار وعجائب تدهش العقول ٠

التناسب علمٌ يقوم على إدراك اللطائف والأسرار المودعة فى اتصال الكلام بعضه ببعض وبيانِ لِمَ وُضِعَتْ الكلمة بعد الكلمة والجملة بعد الجملة والغرض أو المَعْقِدُ بعد الغرض أو المَعْقِد، هو علمٌ يبحث عن الرُّوْح السارية فى البيان التى بها يحيا ويبقى ويؤثِّر، وازدهر هذا العلم فى رحاب القرآن الكريم، فهو من علوم القرآن التى تشتد حاجة المفسِّرِ إليها، وعُنِيَ به جَمْعٌ من المفسرين أشهرهم الرازى والبقاعى وأبو جعفر ابن الزبير والطاهر بن عاشور، ونعى الرازى على جمهور المفسرين إعراضهم عن علم المناسبة فقال " رأيتُ جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر فى هذا الباب إلا كما قيل:

والنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأبصارُ صُورتَهُ والذَّنْبُ للطَّرْفِ لا للنَّجْمِ فى الصِّغَرِ [1]

وجعل أبو بكر الباقلانى التناسب وجها من وجوه إعجاز القرآن فيما سماه " تأليف المختلف"[2]، وهو باب لم يوفِّه الدرسُ البلاغى حقَّه، ولا يزال دَيْنَاً فى رقاب الباحثين فى بلاغة القرآن الكريم خاصة، وفى البلاغة النبوية وبلاغة هذا اللسان العربى المبين عامة ٠

والتناسب فى الحديث الشريف موضوع واسع جدا، وهو أوسع من أن تلم به هذه الدراسة الموجزة، وللعلماء الذين خدموا الحديث الشريف بالشرح والدراسة – نَضَّرَ الله تعالى وُجُوهَهم – جهودٌ وعطاءٌ وافر، ورأيتُ الزَّيْنَ بن المُنَيَّر أشهر هؤلاء العلماء عناية بالتناسب فى الحديث الشريف، وشهرتُه فيه كشهرة الرازى فى العناية بالتناسب فى القرآن الكريم، أو كشهرة البقاعى، أو كشهرة أبى جعفر بن الزبير الغرناطى، وكتاب فتح البارى لابن حجر فيه كثرةٌ كاثرة من كلام الزَّيْن بن المُنَيَّر عن التناسب فى الحديث الشريف، وعطاء الزَّيْن ابن المُنَيَّر فى هذا جديرٌ بأن يُجْمَعَ وتُفْرَدَ له دراسة مستقلة ٠

وهذه محاولة لدراسة ست صور من التناسب فى الحديث الشريف، جَدَّتْ الدراسة فى تحديد معالمها، وتحليل بعض الشواهد المُبِيْنَةِ عنها، قَدْرَ الطاقة، ولا تَدَّعِى أنها وَفَّتْ بذلك أو قاربت، ولكنها لم تُقَصِّرْ فى بذل الجهد والوقت وطول التدبر والنظر فى كلام أشرف الخلق ﷺ، وهى على يقين من أن ما لم تصل إليه من وجوه التناسب فى الأحاديث التى درست وفى الصور التى التقطت – أكثرُ مما وصلت إليه وأغزر وأبهر وأنور، ولكنها خطوةٌ على الطريق أرجو أن تتبعها خطوات، وأسأل الله تعالى أن يتجاوز عن زللى، وأن يغفر لى جهلى، وأن لا يحرمنى ثواب من نظر فى كلام أحب خلقه إليه وأكرم خلقه عليه، واجتهد، ثم أصاب أو أخطأ ٠ وصلَّىالله تعالى وسلَّمَ وبارك على أشرف الخلق وأسعدهم سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ،وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، عدد ما خلق، وعدد ما هو خالق، عدد كل نفَسٍ وطَرْفَةِ عين ٠ اللهم اجعلنا من الذين قلتَ فيهم " دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (يونس١٠) ٠

(١) التفسير الكبير للرازى ١٣٩/٧ ٠

(٢) ينظر إعجاز القرآن للباقلانى ٣٠٣، ٣٠٤ ت السيد صقر ط دار المعارف ٠

تمهيد

١- تسلسل المعانى وأخذ الكلام بعضه بحُجَز بعض

المراد بتسلسل المعانى أن تقوم الجملة على التى قبلها وتأخذ بحُجْزَتِها وتتعلق بها، كما نراها تمد يدا للتى بعدها، وهكذا، حتى يكون الكلام كله كالجملة الواحدة، كما ينطبق هذا المعنى على المعاقد أو الفصول التى يتألف منها الكلام بحيث يُسْلِمُ بعضها إلى بعض ويتفرع اللاحق على السابق ويتصل به بوجه من وجوه التناسب والتواصل، ويطلق المَعْقِد أو الفصل على مجموعة من الجمل أو المعانى الجزئية التى يتكون منها معنى كُلِّىّ يُعَدُّ محورا من محاور النص ٠

والحديث الشريف يظهر فيه بوضوح تسلسل المعانى وإمساك بعضها ببعض، وهذا هو الأصل فيه، وكلُّ حديث شريف هو مثال رائع لهذا التسلسل والتناسب والتواصل، فليست هناك فجوة أو انقطاع بين المعنى والمعنى الذى قبله والذى بعده، بل تجد فيه بين المعانى من التراحم والتآلف والتواصل ما لا نظير له فى كلامٍ بشرى، ولا يعنى هذا أن كلام غيره ﷺ من فصحاء العرب وبلغائهم لا يوجد فيه تناسب ولا تآلف ولا تراحم ؛ لأن الكلام الخالى من التناسب لا يستحق وصف البلاغة أصلا، بل المراد أن التناسب وتسلسل المعانى وأخذ بعضها بحُجَز بعض هو فى كلامه ﷺ أَبْيَنُ وأظهرُ وأكثرُ وأملأُ وأسخى وأنضرُ وأزهر ٠

وهذان حديثان شريفان أحاول التعرف على تسلسل المعانى فى كل منهما: حديث " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ "، وحديث " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ":

١ – " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ":

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا ٠ وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا ")(١) ٠

تسلسل المعانى وأخذ بعضها بحجز بعض ظاهر فى أن الجملة الأولى تُسْلِمُ إلى الثانية، وأن الثانية تمسك بالأولى وتكرر آخر لفظ فيها وترتب المعنى عليها ترتيبا منطقيا كما تترتب المقدمة على أختها ثم تترتب النتيجة عليهما، فقوله ﷺ: " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ " يفيد أن الصدق يوصل إلى الخير بمفهومه الواسع الشامل لكل عمل نافع، وجاءت الجملة الثانية لتبدأ من حيث انتهت الأولى، تبدأ بالبر الذى كان

(١)متفق عليه واللفظ للبخارى فى كتاب التفسير باب قول الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ " (التوبة١١٩)، برقم ٦٠٩٤ ٠

الصدق طريقا إليه فتقول: " وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ "، وبهذا تكتمل المقدمتان، وتترقب النفوس ذكر النتيجة التى تترتب عليهما، ولكن الحديث سكت عن هذه النتيجة ليترك للعقل مساحة من التدبر يستنبطها، والنتيجة معنى رائع يقول: إذاً الصدق يهدى إلى الجنة ؛لأن الجنة طريقها الصدق لا غير، فهى دار الصادقين المخلصين الذين لا يكذبون على أنفسهم ولا على الناس، ولا يضللون، ولا يزورون الحقائق، الجنة دار الصادقين الذين لزموا الصدق والمصارحة والمكاشفة: صدق الكلمة، وصدق العمل، وصدق التوجه، وإن تكبدوا فى سبيل ذلك ما تكبدوا، ولقوا بسببه من الأذى ما لقوا ؛ فإن ذلك لا يزيدهم إلا عزيمة على الصدق وثباتا عليه، وهذا هو الخيط الذى تناسلت منه الجملة الثالثة " وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا "، والفعل المضارع "يصدق" يدل على تجدد الصدق وتكراره وأنه يصدق ويصدق ويصدق، وهكذا حتى يصير الصدق صفة لازمة له ؛ فيكون " صِدِّيقًا " ٠ وفى رواية مسلم من حديث عبد الله بن عمر أيضا: " وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ""وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا"(١)، وتحرى الصدق يدل على المجاهدة والمكابدة فى الثبات على الصدق وسط ركام الأكاذيب والأضاليل التى تاه الصدق فى زحامها، وخفت صوتُه فى ضوضائها، وضاع وسط التشويش والتهويش والنفاق والتدليس والكذب الذى ملأ حياة الناس، حتى صار الصدق والصادق والصدِّيق عزيزا نادرا ٠

ولو قال الحديث: إن الصدق يهدى إلى الجنة، لما أفاد أن الصدق يفتح أبوابا كثيرة كلها يوصل إلى الجنة، وهى أبواب البر والخير، لأن البر أساسه الصدق، فالصدق وراء كل عمل من أعمال البر والخير، وهى أكثر من أن تحصى، وكلها موصل وهاد يهدى إلى الجنة، وهذا يعنى أن الصدق لم يعد مجرد طريق واحد يوصل إلى الجنة، بل صار أصلا تتفرع منه فروع وطريقا تتفرع منه طرق كلها يوصل إلى الجنة، وفى هذا شبهٌ ما من تمثيل القرآن الكريم الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله بمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، فالنفقة هنا لم تعد شيئا واحدا بل " أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ " وهذه السنابل السبع كل سنبلة منها صارت أصلا لمائة حبة " فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ "، قال تعالى (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة٢٦١]، وهكذا الصدق يهدى إلى البر، والبر ليس شيئا واحدا بل هو فروع لا تحصى ؛ ومن أجل هذا أجد الفرق كبيرا جدا بين قوله ﷺ " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ " وما لو قيل: إن الصدق يهدى إلى الجنة ٠ والله أعلم ٠

(١)صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب بَاب قُبْحِ الْكَذِبِ وَحُسْنِ الصِّدْقِوَفَضْلِهِ برقم ٢٦٠٧ ٠

وكون الصدق مفتاحا للبر وأساسا له معنى فتحه الذكر الحكيم فى قول الله جل جلاله: " لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى

الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) [البقرة١٧٧] بعدما ذكرت الآية وجوها كثيرة تدخل تحت اسم البر، حددت النبع الذى تجرى منه أنهار البر وهو الصدق والتقوى " أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"، ولعل الحديث الشريف نظر إلى الجمع بين البر والصدق فى هذه الآية الفذة الجامعة ٠

قوله ﷺ " وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا " جاء تسلسل المعانى فيه وبناء بعضها على بعض على حذو تسلسل المعانى وبناء بعضها على بعض فى قوله ﷺ " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا ": فكما أن الصدق منبع البر وعموده فالكذب منبع الفجور وعموده، وكما أن الصدق يوصل إلى الجنة فالكذب يوصل إلى النار، وكما أن الرجلر يصدق حتى يكون صديقا فكذلك الرجل يكذب حتى يكون كذابا، وكما أن البر كلمة جامعة لكل خير، فكذلك الفجور كلمة جامعة لكل شر، وكما أن الصدق يفتح أبوابا لا تحصى إلى الجنة لأنه يفتح أبواب البر كلها، والبر يهدى إلى الجنة، فكذلك الكذب يفتح أبوابا لا تحصى إلى النار لأنه يفتح أبواب الفجور والمعاصى والشر كلها والفجور يهدى إلى النار، الاتحاد فى تسلسل المعانى فى الحديث عن الصدق والكذب أبين من فلق الصبح، وأكثر شبها من الماء بالماء، وهذا التسلسل يضعنا على مدب الصدق ويطلعنا على حركته خطوة خطوة: أين ينتقل بنا وإلى أين ينتهى عند خاتمة المطاف، ابدأ مع الصدق وتخلَّقْ به فإنه ينقلك إلى ساحة أوسع، ساحة البر الذى لا حدود له، ثم يختم لك طريقك بالجنة ؛ لأنه يهديك إلى البر ؛ والجنة دار الأبرار، ومن بدأ مع الكذب وتخلق به فإنه ينتقل به إلى ما هو أسوأ وأردأ وأقبح وأشنع، ينتقل به إلى الفجور، ثم يختم طريقه بالوصول إلى النار ؛ لأن الفجور يهدى إلى النار، والنار دار الفجار ٠ وهذه النهاية التى يهدى إليها البر وهى الجنة والنهاية التى يهدى إليها الفجور وهى النار نجدها فى قوله تعالى " إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٠ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) [الانفطار ١٣،١٤] ٠

وبُنِىَ الحديث الشريف على أسلوب المقابلة: المقابلة بين الصدق والكذب، والبر والفجور، والصديق والكذاب، والجنة والنار، مقابلة أربعة معان بأضدادها، زادت المعنى وضوحا وظهورا، لأن الأشياء تتميز بأضدادها، وتعرف وتشهر بما يقابلها، كما زادت المعانى والمبانى تماسكا وتناسبا؛ لأن الشىء كما يحن إلى نظيره ويأخذ بحجزة شبيهه، فإنه يأخذ بحجزة ضده ونقيضه ويقف بجانبه ليكوّن معه صورتين متقابلتين ٠

ولا يخفى شريف النظم الذى ألف الحديث وزكى روح التناسب والتآلف بين أجزائه حتى صارت شيئا واحدا، وإذا وضعت كل جملة فى جانب الصدق بجوار التى تقابلها فى جانب الكذب لظهر هذا التناسب ظهور الشمس فى رابعة النهار، فالبناء واحد فى قوله: " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ "

مع قوله: " وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ "

وفى قوله: " وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ "

مع قوله: " وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ "

وفى قوله: " وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا "

مع قوله: " وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا "

فهذه الجمل كلها حذو واحد، ونسيج واحد ؛ لأنها جرت من نبع واحد، وأضاءت من مشكاة واحدة، ناهيك عن المعانى التى تسكنها، فهى الحكمة والسداد والهدى ٠

ست جمل، افتتحت كل منها ب " إنَّ " للتأكيد، وإن كانت معانيها أقرب إلى النفس من حبل الوريد، وآكد وأوثق من البديهيات والمسلَّمات التى لا يمارى فيها أحد ؛ فليست المعانى غريبة حتى تحتاج إلى تأكيد، ولا مشكوكا فيها، ولا ينكرها ذو عقل سليم، ولكن الحقائق والمسلَّمات والبديهيات كثيرا ما تأتى العبارة عنها فى أسلوب مؤكَّد لمزيد الحفاوة بها والعناية بشأنها ؛ حتى تكون وثاقتها فى طريقة البيان عنها مناسبة لوثاقة معانيها، وقوة العبارة مناسبة لقوة المعنى وسداده ورجاحته واستقامته ؛ فتقف على ممر الزمان شامخة راسخة لا تهتز ولا تتبدل ولا يعتورها شك ٠ وشىء آخر فى تأكيد هذه الجمل الست وهو انها تدعو من زاغ عن الصدق وراغ إلى الكذب وتهتف به أن ليس الطريق ثمة، وأنك قد ضللت الطريق، فعُدْ إلى الجادة ؛ فإن الصدق نجاة، وإن الكذب هلاك ٠ إن النفوس كثيرا ما تزيغ عن الشىء الظاهر مع شدة ظهوره ؛ جريا وراء الهوى والشيطان والغرور الكاذب والأمانى الخادعة، وتأكيد المعانى وإن كانت ظاهرة صادقة أنسب لهذا وألزم للحجة وأدعى إلى لزوم الجادة والرجوع إلى الصواب والصدق ٠ إن الكذب كثيرا ما يراود النفوس – مع علمها بشره ووباله – فتهرع إليه وتلوذ به ؛ فتردى ٠ تأكيد العبارة يضع هذه الحقائق أمام النفوس ساطعة ليردها عن الأضاليل والأمانى الكاذبة التى تتسرب إليها من كل فج وتأتيها من كل سبيل ؛ ولذا كان تحرى الصدق ولزومه حتى يكون صفة للمؤمن وسمة وفضيلة وخلقا أمرا يحتاج إلى جهاد ومصابرة ٠ والله أعلم ٠

وقدم ذكر الصدق والكذب وما يهدى إليه كل منهما على ذكر الرجل الصادق والرجل الكاذب للاهتمام بكون الصدق يهدى إلى البر وإلى الجنة وكون الكذب يهدى إلى الفجور وإلى النار، حتى يختار العبد منهما ما يختار وهو على بَيِّنَة بأنه عندما يأوى إلى

دوحة الصدق فإنه يأوى إلى البر ويختار الجنة، وعندما يهوى إلى ردغة الكذب فإنه يهوى إلى الفجور ويهوى إلى النار ؛ فتكون عواقب كل منهما واضحة أمامه بلا لبس ولا خفاء، وهذا من المقاصد العالية والحكمة الراشدة فى بناء المعانى وتحريرها ٠

وخبر " إنَّ " جملة فعلية فعلها مضارع (يَهْدِي – يَهْدِي – لَيَصْدُقُ – لَيَكْذِبُ)، والوصول إلى البر وإلى الجنة هداية لأنه وصول إلى الخير والنعيم المقيم، أما الوصول إلى الفجور وإلى النار فليس بهداية، وإطلاق اسم الهداية عليه على سبيل المشاكلة للتعبير بكلمة " يهدى " فى جانب البر والجنة، مع أن الفرق بين الهدايتين بعيد كل البعد، كالفرق بين الهدى والضلال، وكالفرق بين شيء حسن نبيل يوصل إلى غاية حسنة نبيلة، وشيء قبيح شنيع يوصل إلى غاية قبيحة شنيعة، وبئس الهادى الذى يهدى إلى الفجور وإلى النار، وهذه الهداية البئيسة كالهداية إلى عذاب السعير التى ذكر الله تعالى فى قوله: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ٠ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) [الحج ٣، ٤]، إن الكذب لا يكون هاديا أبدا، والشيطان المتمرد لا يكون هاديا أبدا، إلا إذا كان من يهتدى بهما واهما مخدوعا يتخذ الشيطان إماما هاديا ويتخذ الكذب المهلك سبيلا قاصدا ٠

ولم يشغل البيان مساحةً ما منه ببيان جزاء الصادق والكاذب لأنه مفهوم من كون الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وكون الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، فيُفْهَمُ من ذلك أن الصادق فى الجنة وأن الكاذب فى النار، ولذا لم يقل الحديث: وإن الرجل ليصدق حتى يدخل الجنة وإن الرجل ليكذب حتى يدخل النار، لأن ما يفهم عن طريق الإشارة لا تُشْغَلُ به العبارة، بل تنصرف إلى شيء آخر، وهذا من الإيجاز واللمح الذى بنيت عليه العربية، وهو من شجاعتها واقتدارها ٠ وانصرف الحديث هنا إلى أن الصادق الذى يتحرى الصدق ويحرص عليه حتى يكون صفة لا زمة له ينال مَزِيَّةً أخرى ووساما آخر وشرفا آخر وذلك أنه يكون " صِدِّيقًا "، وتلك منزلة عالية، هى المنزلة التى تقترن بمنزلة النبوة، كما قال ربنا جل وعلا (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) [النساء٦٩](وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً) [مريم٤١] (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً) [مريم٥٦] ٠ وأما الكذاب الذى يتحرى الكذب ويحرص عليه حتى يكون صفة لازمة له وسمتا يعرف به فإنه يكون "كَذَّابًا "، وهذا من أقبح الأوصاف وأشنعها، فضلا عن كون هذا الوصف ثابتا له " عِنْدَ اللَّهِ " جل جلاله ٠ وهذا يعنى أن الوصف الذى تختاره لنفسك وتدوم عليه فى الدنيا هو الوصف الذى يكتب لك عند الله جل جلاله ٠

وقوله ﷺ" حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا " " حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا " بمعنى يُحكَمُ له بذلك ويستحق الوصف بمنزلة الصديقين أو الكذابين، والمراد إظهار ذلك لخلقه بكتابته فى اللوح أو الصحف أو بالإلقاء فى القلوب وعلى الألسنة (١) .

٢- " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ":

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ قَالَ: " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ،تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ؛يَكْرَهُ الْمَوْتَ،وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)(٢) .

هذا الحديث القدسى يتكون من تسع جمل، كل جملة تلتقط من التى قبلها خيطا تمسك به وتبنى عليه:

١- فجملة "وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ . . " تشرح معنى الولاية التى ذُكِرَ لفظُها صراحة فى الجملة الأولى " مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ "، فمن هو الولى الذى يؤذن الله تعالى بالحرب من عاداه ؟ ولم تُكَرِّر الجملةُ الثانية لفظ " الوليّ "، فلم تقل: إن الولى من يتقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، ولم يوضع لفظ " الوليّ " موضع لفظ "عبدى " فى الجملتين الثانية والثالثة فلم يقل الحديث: وما تقرب إليَّ الولى بشىء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال الوليُّ يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، وهذا المسلك يدع للعقل مجالا للاستنباط والفهم ليدرك أن الوليَّ عبدٌ لله جل جلاله، شَرَّفَه الله تعالى بإضافته إلى نفسه مرتين " عَبْدِي . . عَبْدِي " . وافتتحت الجملة الثانية بقوله " وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ " لتدل على أن التقرب إلى الله سبحانه هو طريق الولاية، ثم قسمت التقرب قسمين: تقرب بالفرائض، وتقرب بالنوافل، وقدمت الفرائض لأن الفرض مقدَّمٌ على النافلة، ولأن النوافل لا تَسُدُّ مَسَدَّ الفرائض ولا تغنى عنها .

٢- وجملة " وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ " انتهت بقوله " حَتَّى أُحِبَّهُ "، وأمسكت الجملة التى بعدها بهذا اللفظ " أُحِبَّهُ " وبنت عليه أو فَرَّعَت عليه بالفاء كما يقول العلماء، والتفريع مصطلح ثرى يجعل الجملة السابقة كأصل الشجرة، ويجعل الجملة المبنية عليها النابتة منها كالفرع يتفرع من أصل الشجرة وينبت منه، جملة " فَإِذَا

(١)ينظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ٢/ ٣٦١برقم ٢٠٤٤

(٢)صحيح البخارى كِتَاب الرِّقَاقِ بَاب التَّوَاضُعِ برقم ٦٥٠٢

أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ٠٠ " ممسكة بمحبة الله تعالى لهذا الولى، كاشفة عن أثرها فيه ٠

٣- وجملتا " وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ " مبنيتان على ما قبلهما، فإذا كان الله تعالى " سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا " فإن الله تعالى يستجيب دعاءه ؛ فيعطيه إن سأله، ويُعِيذُه إن استعاذ به ٠

٤- وقوله " وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ ٠٠ " إلى آخر الحديث احتراس مما يدل عليه العموم فى الجملتين السابقتين من أن الولى إن سأل الله تعالى أىَّ شىء أعطاه وإن استعاذ به من أىِّ شىء أعاذه، فكأنه قال: أعطيه كل ما سأل إلا الخلود فى الدنيا ؛ لأنه جل جلاله كتب الفناء على كل شىء (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [القصص ٨٨] (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ٠ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[الرحمن ٢٦، ٢٧]، وقوله " يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ " بيان لقوله " وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ " ؛ ولذا فُصِلَ عنه ولم يعطف عليه، وتقديم المسند إليه " أنا " على الخبر الفعلى " أكره " يدل على أن كراهية الله جل جلاله مساءة الولى أقوى وآكد من كراهية الولى نفسه للموت، وهذا التقديم يرد مقطع الحديث – أى آخره – على مطلعه – أى أوله – لاتحاد المطلع والمقطع فى الدلالة على عناية الله تعالى بهذا الولى، دل على ذلك فى المطلع بأن الله جل جلاله يؤذن بالحرب من عادى وليَّه، ودل عليه فى المقطع بتقديم المسند إليه " أنا " على الخبر الفعلى " أكره " فأفاد أن الله تعالى أشد كراهية لمساءة الولى، وهذه معانٍ تتلاقى وتتآلف ٠

٢- تعدد وجوه التناسب فى الحديث

من ثراء البيان أن تتعدد فيه وجوه التناسب، فترى الجملة تتصل بالتى قبلها بأكثر من وجه، فتكون كاللؤلؤة من حيث قلبتها رأيت لها جمالا ونضارة وضياء، وترى لكل وجه من التناسب معنى ومذاقا يقبله البيان من غير تكلف ولا تعسف، بل يسرى فيه مَسْرَى النَّفَس فى النَّفْس، وكثرةُ هذه الوجوه تجعل الكلام كالبنيان المرصوص يَشُدُّ بعضُه بعضا، وكالجسد الواحد تتصل أعضاؤه ويرتبط بعضها ببعض بروابط لا تحصى ؛ ولذا تتغازر وجوه التناسب فى الكلام بطول النظر والتدبر، وتتبارى فهومُ العلماء فى استبصار تلك الوجوه والتهدِّى إليها حين تعرض لهم كأنها لمحة طائرة أو نسمة عابرة إن لم يقيدها العقل فرت هاربة شاردة ٠

وهذه أطايب من الحديث الشريف لم يكن للتناسب فى كل منها وجهٌ واحد، بل وجهان أو أكثر، ولك أن تستنبط منها وجها أو وجوها أخرى ؛ لأن حصر التناسب فى الحديث فى وجهٍ واحدٍ لا غير أمرٌ لا يجترىء عليه مَنْ وَقَفَ على سَعَةِ هذا الباب وتبحر فى عطاء الصفوة المختارة من شراح الحديث الشريف، واستقصاء كلامهم استقصاء تاما دونه خرط القتاد، فكم فى الزوايا من خبايا ! ولم يكن ما أطقت فهمه من خيوط التناسب ووشائج القربى أنور الوجوه ولا أنضرها، بل كانت كلمات الأئمة من شراح الحديث الشريف – على إيجازها هى الأنور والأنضر ٠

على أن وجوه التناسب ليست على درجة واحدة، بل منها القريب والأقرب والبعيد والأبعد، ومنها ما لا تقبله النفس إلا على ضرب من التسامح، ومالا تقبله النفس جملةً لما فيه من التكلف والتعسف، ولا شك فى أن حَمْلَ الكلام على أحسن الوجوه وأقواها وأمسها به رحماً هو الأَوْلَى والأعلى والأهدى فى فقه البيان ٠

ولا يدخل فى تَعَدُّدِ وجوه التناسب فى الحديث الشريف ضربٌ منه لا يخلو منه كل حديث شريف، وهذا الضرب هو التناسب بشَرِيف النَّظْم الذى يؤلِّفُ جُمَلَ الحديث ويُحْكِمُ عَقْدَها والتئامها، والمراد بشريف النَّظْم وَحْدَةُ النسج والتركيب وحَذْو الكلام على طريقة واحدة من التعريف أو التنكير والتقديم أو التأخير والقصر والتوكيد والتشبيه والاستعارة والكناية وغير ذلك من طرق النظم والتأليف، و" شَرِيفُ النَّظْم "كلمة جليلة ابتكرها القاضى أبو بكر الباقلانى فى حديثه عن وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم سماه " تأليف المختلف " وأراد به المعانى المتباعدة التى يكون كلٌّ منها من وادٍ ثم يؤلِّفُ بينها "شَرِيفُ النَّظْم"؛ فيُصَيِّرها قريبةً دانية [١]، وهو باب جليل فتحه الباقلانى ولم تحكمه الدراسة البلاغية حتى الآن، فضلا عن أن توسِّعَهُ وتَمُدَّ مَيدانه، ناهيك عن أن تَرْكُضَ فيه أفراسُ الفكر

(١)ينظر إعجاز القرآن للباقلانى ٣٠٣، ٣٠٤ ٠

لتفتح به مَجْهَلاً من مجاهل العلم يقوم عليه وينهض على أكتافه، ولكنه ليس هو هو، بل شيء جديد أنبته طولُ الفكر وكثرةُ المراجعة والتدبُّر ٠

١- " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله في ظِلِّهِ يوم لَا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ ":

(عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله تَعَالَى في ظِلِّهِ يوم لَا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ:

إِمَامٌ عَدْلٌ

وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللَّهِ

وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ

وَرَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ اجْتَمَعَا عليه وَتَفَرَّقَا عليه

وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فقال إني أَخَافُ اللَّهَ

وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حتى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ

وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) (١) ٠

الجمع بين هؤلاء السبعة من عجيب التأليف، والتناسب بينها دقيق لطيف،ومن وجوه التناسب بينها:

١- أنها تجمع الراعى والرعية ؛ ولهذا كان الإمام العادل أولهم، وكأنه يقودهم إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله كما كان يقودهم فى الدنيا ويسوسهم بالعدل والإنصاف، ولا شك فى أن عدل الإمام يحث الرعية على الهدى والخير والاستقامة ٠

٢- أن جماع أمرهم العبادة والورع والخوف من الجليل سبحانه، فورع الإمام فى عدله وإنصافه، وورع الشاب وهو فى مَيْعَةِ الشباب أن يأوى إلى عبادة ربه وينأى عن الصوارف التى تشغله عن ذلك وهى فى مرحلة الشباب أكثر، وورع المصلى أن يبقى قلبُه مشتاقا دائما إلى المسجد مُعَلَّقاً به كالقنديل المُعَلَّقِ فى المسجد لأن أنسه فيه وراحة نفسه وخشوع قلبه، وورع المتحابَّيْنِ أن يكون حبُّهما " فى الله " خالصا لوجهه جل جلاله لا تشوبه شائبة من مصالح الدنيا ومنافعها، وورع الرجل أن يحفظ الله تعالى فى المواضع التى تزل فيها أقدام الرجال وتغيب عقولهم أمام شهوات الدنيا ومغرياتها، وأول هذه الشهوات وأشدها على الرجال شهوة النساء لا سيما إذا كانت المرأة هى الداعية إلى الصبوة وكانت ذات منصب وجمال، وورع المتصدق فى المبالغة فى إخفاء صدقته، وورع الذاكر لله أن تفيض عيناه خوفا من الله تعالى وشوقا إليه عندما يذكر الله خاليا بعيدا عن الناس ٠

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري فى كِتَاب الزَّكَاةِبَاب الصَّدَقَةِ بِالْيَمِينِ، برقم ١٤٢٣ ٠

٣– وذكر الكرمانى وجها للتناسب بين هؤلاء السبعة (محصله أن الطاعة إما أن تكون بين العبد وبين الرب، أو بينه وبين الخلق، فالأولى باللسان وهو الذكر، أو بالقلب وهو المعلق بالمسجد، أو بالبدن وهو الناشئ في العبادة، والثاني عام وهو العادل، أو خاص بالقلب وهو التحاب، أو بالمال وهو الصدقة، أو بالبدن وهو العفة) (١) .

هذه بعض وجوه التناسب بين هؤلاء السبعة، ويمكن أن تلمح بينهم وجوها أخرى غير ما سبق، بل لعل ما أطقت إدراكه منها لا يعدو أن يكون قشرة سطحية، وتبقى الجواهر النفيسة غائرة فى أعماق البيان، مكنونة فى أصدافه .

وثمة مناسبات أخرى بين كل واحد من هؤلاء السبعة والذى قبله:

١– فالمناسبة بين الشاب الذى نشأ فى عبادة ربه والإمام العدل أن مرحلة الشباب أكثر مراحل العمر تأثرا بما يجدونه من قدوة حسنة أو سيئة، فإذا عدل الإمام وبر وصدق هدى الأجيال الناشئة إلى تلك الصفات النبيلة والخلائق الفاضلة، وإذا فرط الإمام وضيع أغرى الشباب بتلك الصفات الرديئة، وجاء الشاب فى الترتيب لَفْقَاً للإمام العادل ليقربهم الإمام منه ويكون لهم فى دولته مزيدٌ من العناية والرعاية لأنهم قوة الأمة وعماد نهضتها .

٢– والمناسبة بين الرجل المعلق قلبه فى المساجد والشاب الذى نشأ فى عبادة الله يمكن إدراكها من لفظى (العبادة) و (المساجد) فالنسب بينهما قريب، إذ المساجد للصلاة والعبادة، فذكر المساجد بعد العبادة من ذكر الخاص بعد العام، لأن العبادة تكون فى المساجد وفى غيرها .

٣– والمناسبة بين الأربعة الباقين من السبعة وبين الشاب والمعلق قلبه فى المساجد أن هذين داوما على العبادة، والأربعة الباقون كل منهم يمثل أنموذجا لأثر هذه العبادة فى التعامل مع الخلق ومع الخالق . فمن تعامله مع الخلق أن يكوم محبا للصالحين فى الله متعاونا معهم على الخير (وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فى اللَّهِ)، ومن أثرها صمودُه أمام إغراء الدنيا وشهواتها، وأشد ذلك حُبُّ الشهوات من النساء، والوقوع فى حبائلهن (وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فقال إني أَخَافُ اللَّهَ)، ومن أثرها أن يكون المرء عطوفا على الفقراء صاحب صدقة وجود، يبتغى بذلك وجه الله تعالى (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حتى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ)، ومن أثرها فى تعامل المرء مع خالقه أن يخلو بذكره خاشعا حتى تفيض عيناه ؛ لأن العبادة ترقق قلبه وتزيد محبته لربه وأنسه به (وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) .

٤– والمناسبة بين المتحابَّيْنِ فى الله تعالى والذى دعته امرأة ذات منصب وجمال ؛ أن الأول حب علوى طاهر، يعلو بالروح ويطهرها، ودعوة المرأة إلى الرجل دعوة إلى

(١)فتح الباري ١٦٨/٢ .

الفاحشة وانحدار إلى المتعة الرخيصة والشهوة العاجلة التى تلوث النفس وتدنس العرض ، ويا بُعْدَ ما بينهما !! ومن أحب الله تعالى وأحب فى الله تعالى تسمو نفسه عن الانحطاط إلى أوحال الخطايا ومستنقع الشهوة الزائلة والمتاع الرخيص العاجل ٠

٥- وبين الذى دعته امرأة والمتصدق والذاكر خيط تناسب رقيق، وهو الخفاء والستر، ويمكن إدراكه من التصريح والتلميح، التصريح فى كلمتى (خاليا – فأخفاها)، والتلميح فى قوله (دَعَتْهُ امْرَأَةٌ) ؛ فهو مع المرأة فى خلوة وخفاء عن أعين الرقباء ولكنه استحضر شهود الخالق جل جلاله، والمتصدق بالغ فى إخفاء صدقته لتغيب عن شهود الخلق وتحظى بشهود الخالق جل جلاله، والذاكر لله جل جلاله فَرَّ بنفسه عن شهود الخلق ليخلو بشهود الخالق جل جلاله، الثلاثة يجمعهم الورع والخوف من الله جل جلاله حين يغيبون عن أعين الناس فى مقامات لا نجاة منها إلا بذلك ٠ والله أعلم ٠

وفى الحديث جانب آخر من التناسب وهو شَرِيفُ النَّظْم الذى أَلَّفَ بين الجمل، وهذا ظاهر فى البناء التركيبى للحديث، حيث بُنِيَت كلُّ جملة على الابتداء بنكرة موصوفة بمفرد بعدها أو بجملة، وهذه الصفة كاشفة للنكرة ومخصصة لها وهى قطب الرحا والمقصود الأعظم ؛ لأنها تبين الصفة التى استحق بها كل واحد من هؤلاء السبعة أن يظله الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله، وتأمل هذا التشابه فى التركيب:

(سَبْعَةٌ [نكرة موصوفة بجملة] يُظِلُّهُمْ الله تَعَالَى فى ظِلِّهِ يوم لَا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ

إِمَامٌ [نكرة موصوفة بالمفرد] عَدْلٌ

وَشَابٌّ [نكرة موصوفة بجملة] نَشَأَ فى عِبَادَةِ اللَّهِ

وَرَجُلٌ [نكرة موصوفة بجملة] قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في الْمَسَاجِدِ

وَرَجُلَانِ [نكرة موصوفة بجملة] تَحَابَّا في اللَّهِ اجْتَمَعَا عليه وَتَفَرَّقَا عليه

وَرَجُلٌ [نكرة موصوفة بجملة] دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فقال إني أَخَافُ اللَّهَ

وَرَجُلٌ [نكرة موصوفة بجملة] تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حتى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ

وَرَجُلٌ [نكرة موصوفة بجملة] ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) ٠

وهذه الوحدة فى بناء الحديث تجعله لُحْمَةً واحدة، وفى التنكير تعظيم لهذه النكرة الموصوفة بتلك الصفات، فهم عظماء، والنكرات السبع وصف كل منها بجملة اسمية أو فعلية إلا الإمام العدل فوصف بالمفرد؛ لأن المفرد (عدل) أغنى عن جملة بل عن جمل وعن كلام كثير ؛ لأن العدل أساس الملك، وأساس الإصلاح والخير والاستقامة فى الأمة كلها، وجاءت خمس صفات جملا فعلية فعلها ماض (نشأ – تحابا – دعته – تصدق – ذكر الله) للدلالة على تحقق وقوعها، أما قوله (قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فى الْمَسَاجِدِ) فجملة اسمية

تدل على دوام تعلق قلبه بالمساجد وثبوت تلك الصفة فيه، وهذا أدل على شدة تعلقه بالمساجد ٠

ومن التناسب اللفظي أيضا تلك الفاء العاطفة التى ربطت الجمل الثلاث الأخيرة فى قوله: (وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فقال إني أَخَافُ اللَّهَ – وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حتى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ – وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ) وراجع نسق العطف الذى جاء بالفاء: دعته فقال – تصدق فأخفى – ذكر الله ففاضت، والفاء هنا أحدثت ضربا من التناسب والتوافق فى بناء الجمل الثلاث، وهى تدل على الترتيب والتعقيب بلا مُهْلَة، تدل على أن قول الرجل الذى دعته امرأة (إنى أخاف الله) كان عقب دعوتها له إلى الفاحشة فورا وبلا مهلة، فلم تراوده نفسه إلى فعل ما أرادت فترة من الزمن ولو قصيرة ثم آب بعدها إلى رشده ويقينه وقال إنى أخاف الله، بل كان قوله (إنى أخاف الله) مرتبا على دعوتها مباشرة وبلا تردد، وهذا أدل على شدة ورعه وخوفه من الله واستحضاره لجلاله فى مقام تزل فيه أقدام الرجال وتطيش ألباب ذوى النهى، والفاء فى قوله " وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا" تفيد أن إخفاءه صدقته كان ملابسا للتصدق بها وأنه لم يدع لها أى مجال للظهور والرياء بل لفها فى ثوب الخفاء وغطاها وجعلها فيه مطمورة مغمورة، والفاء فى قوله " وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ " دلت على رقة هذه النفس الذاكرة لله جل جلاله وأنها أطالت الأنس بالله جل جلاله ؛ ولذا لم تستغرق وقتا ما فى الذكر حتى فاضت العينان من خشية الله تعالى، بل كان فيضان العينين بمجرد ذكرها لله تعالى، وهذا أدل على صفائها وورعها ٠

ومما قَوَّى لُحْمَةَ الحديث أيضا قيامُه على أسلوب الإجمال والتفصيل، الإجمال فى قوله (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله تَعَالَى فى ظِلِّهِ يوم لَا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ) وهو إجمال يشوق إلى معرفة هؤلاء السبعة، فلا تشبع النفس إلا بتفصيلهم وبيان صفة كلٍّ منهم التى رفعته إلى تلك المنزلة العالية

٢– أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟

(عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ " ٠ قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: " مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ، يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ ") (١)

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري فى كتاب الجهاد بَاب أَفْضَلُ النَّاسِ مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، برقم ٢٧٨٦ ٠

يمكن أن نلحظ فى هذا الحديث – على قصره – وجوها من التناسب جمعت الرجلين المؤمنين اللذَينِ وصفهما الرسول ﷺ بأنهما أفضل الناس، ومن هذه الوجوه:

١– الإخلاص لأن كلا منهما يبتغى بعمله وجه الله تعالى، فالأول يجاهد (فى سبيل الله) لا رياء ولا سمعة، والثانى فى عزلته (يتقى الله) أى أنه يخلص لله تعالى ويراقبه فى خَلْوَته،فكلاهما مخلص لله جل جلاله.

٢– أن كلا منهما ينفع الأمة ويخدمها إيجابا أو سلبا، فالأول مجاهد فى سبيل الله تعالى يبتغى إعلاء كلمة الله، ويسعى لرفعة الأمة ؛ فهذا يخدم الأمة بعمله الإيجابى النافع المثمر، والثانى (يدع الناس من شره)؛ فالناس منه فى سلام وأمن ؛ يأمنون جانبه ولا يخافون أن يعكر صفوهم أو يكدر حياتهم، فهذا يخدم الأمة بتركه إيذاء الناس ولزومه خاصة نفسه يصلحها ويقومها، فهو يخدم الأمة سلبا ؛ لأنه لم يعمل عملا مثمرا ولم يقدم لها عطاء، ولكن حسبه أنه كف أذاه عن الناس فأمنوا شره وبوائقه .

٣– التناسب عن طريق التضاد الذى نراه بينهما فى الواقع، فالأول منخرط فى جهاده فى سبيل الله بسيفه وسلاحه فى حومة المعركة، أو مرابط على ثغر من ثغور الإسلام، أو مجاهد فى سبيل الله تعالى بفكره وعلمه وقلمه، فهو فى حومة الحياة يدرأ عن هذا الدين ويذود عن حياض هذه الأمة الكريمة، يجادل الخصوم ويلزمهم الحجة ويتحمل سفههم وطغيانهم كما أن المجاهد بسلاحه يصد هجوم العدو ويتقى ضربة من هذا وطعنة من ذاك ويضرب بسلاحه، المجاهد على خطر لأنه فى حومة المعارك إن أخطأه سهم أصابه سهم، والثانى آمنٌ فى شعب بعيدٍ ناءٍ، ومع ما بينهما من تضاد إلا أن كلا منهما أحرز الفضل وحاز قصب السبق، وقُدِّمَ المجاهدُ فى سبيل الله لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام .

وأَلَّفَ بينهما أيضا شَريفُ النَّظْم، وهذا ظاهر فى الابتداء بالنكرة (مؤمن) ووصفها فى الأول بأنه (يجاهد) وفى الثانى بأنه (فى شعب) = وظاهر فى التعبير فى كل منهما بالفعل المضارع الدال على التجدد (يجاهد – يتقى – يدع)، تجدد الجهاد من الأول وتجدد التقوى والابتعاد عن إيذاء الناس من الثانى = وظاهر فى تقييد كل من الفعلين المضارعين بقيد، فقيد (يجاهد) بالجار والمجرور (فى سبيل الله)، وقيد (يتقى) بالمفعول (الله)، وهذا القيد جامع أصيل وهو الركن الأعظم فى المعنى ؛ لأنه يعنى أن كلا منهما أراد الله جل جلاله بجهاده أو بعزلته.

صورٌ من التناسب فى الحديث الشريف
الصورة الأولى: تأليف المُؤْتَلِف وتأليف المُخْتَلِف

" تأليف المُؤْتَلِف وتأليف المُخْتَلِف " بابٌ فتحه أبو بكر الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) فى كتاب " إعجاز القرآن " وذكر له شواهد من الذكر الحكيم، ومُرَادُه بتألف المؤتلف الجمعُ بين المعانى القريبة المتلائمة التى يأنس بعضُها ببعض والتى هى من وادٍ واحد أو من أودية متقاربة، ولا يحتاج إدراك التناسب بينها إلى طول فكر ومراجعة لظهور العلاقة بين الجملة والجملة أو بين المعنى والمعنى، أما تأليف المختلف فهو الجمع بين المعانى المنفصلة المتباعدة المواقع المتنائية المطارح التى يكون كلٌّ منها من واد، ومن شواهده فى المؤتَلِف قول الله جل وعلا (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) [غافر١٧] قال الباقلانى " ومن يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث، على قُرْبِها، وعلى خفتها فى النظم، وموقعها من القلب "[(١)]، والكلمات الثلاث هى الجمل الثلاث، ومِن قُربها أنها تصور شيئا واحدا فى يوم واحد، تصور الجزاء والحساب يوم القيامة، والجملة الثانية كالتوكيد للأولى ؛ لأن مجازاة كل نفس بما كسبت هو العدل عينُه، وهذا رباط معنوى يؤلف بينهما، وتكرار كلمة " اليوم " رباط آخر لفظى يزيدهما قربا وتناسبا وتآلفا، والجملة الثالثة ترتبط بالأوليين فى المعنى فتقع منهما موقع الاحتراس مما يدل عليه معناهما من أن مجازاة كل نفس بما كسبت مجازاة عادلة لا ظلم فيها أمر يطول لكثرة ما خلق الله من النفوس التى لا يحصيها إلا علام الغيوب، ثم محاسبتها على كل صغير وكبير، مع العدل المطلق الذى لا يظلم مثقال ذرة ؛ ولهذا جاءت جملة " إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ " فى غاية المناسبة؛ لأن سرعة الجزاء العادل كالتأكيد لقوله " لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ "، ومن التناسب اللفظى أن الإخبار عن ذى الجلال بأنه " سَرِيعُ الْحِسَابِ " ناظر إلى العموم الذى نطقت به الجملة الأولى فى قوله " تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ " ؛ لأن الجزاء والحساب من واد واحد، والعموم الذى فى قوله " كُلُّ نَفْسٍ " كأنه يفتح الباب ويوطىء الكلام لوصفه سبحانه بأنه " سَرِيعُ الْحِسَابِ " .

ومن شواهده لتأليف المختلف قول الله جل جلاله " وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"[القصص٧٧]، قال الباقلانى " هى خمس كلمات

(١)إعجاز القرآن للباقلانى ٣٠٣، ٣٠٤ .

متباعدة فى المواقع، نائية المطارح، قد جعلها النظم البديع أشد تألفا من الشيء المؤتلف فى الأصل، وأحسن توافقا من المتطابق فى أول الوضع " [١] .

ولم تحاول الدراسات البلاغية إلى الآن تطبيق فكرة " تأليف المُؤْتَلِف وتأليف المُخْتَلِف " على القرآن الكريم كلِّه تطبيقا مستوعبا، فضلا عن نقل هذه الفكرة من الدرس القرآنى إلى الحديث الشريف ثم إلى كلام العرب شعره ونثره، هى ميادين ينبغى أن يلجها الدرس البلاغى بصدق وإخلاص .

على أن " تأليف المُؤْتَلِف وتأليف المُخْتَلِف " فكرة ليست غريبة على الدرس البلاغى، بل لها فيه حضور قوى ظاهر:

– ألا يعد من جذورها ما ذكره الجاحظ عن التلاؤم وعن الشعر الذى له قِران والذى لا قِران له، وأن الشاعر الذى يجمع بين البيت وأخيه أفضل من الشاعر الذى يجمع بين البيت وابن عمه[٢] ؟

– ألا يعد من حضورها فى الدرس البلاغى ما ذكروا من الجمع بين المتباعدين فى التشبيه كالجمع بين مقدَّم طرف قرن الظبى والقلم الذى أصاب من الدواة مدادها فى بيت عَدِيِّ بنِ الرِّقَاعِ، وهو من الشواهد السيَّارة:

يُزْجِى أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

والجمع بين البنفسج وأوائل النار عند أخذها بأطراف الكبريت فى ابن الرُّومى:

ولازَوَرْدِيةٍ تَزْهُوْ بِزُرْقَتِهَا بَيْنَ الرِّيَاضِ على حُمْرِ اليَوَاقِيْتِ

كأَنَّهَا فَوْقَ قَامَاتٍ ضَعُفْنَ بها أَوَائلُ النَّارِ فى أَطْرَافِ كِبْرِيْتِ

ذكر الإمام عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) أن من غرابة هذا التشبيه وحسنه أنه " أراك شبهاً لنباتِ غَضٍّ يَرِفُّ، وأوراقٍ رطْبةٍ تَرَى الماءَ منها يَشِفُّ، بلهَب نارٍ فى جسمٍ مُسْتَوْلٍ عليه اليُبْسُ، وبَادٍ فيه الكَلَف، ومَبْنَى الطباع وموضوعُ الجِبِلَّة، على أن الشيء إذا ظَهر من مكان لم يُعْهَد ظهوره منه، وخرج من موضعٍ ليس بمعدِنٍ له، كانت صَبَابةُ النفوسِ به أكثر، وكان بالشَّغَف منها أجدر " [٣]، وللإمام عبد القاهر هنا كلام نفيس جدا ذكر فيه الائتلاف والاختلاف، وكأنه يستقى من المعين الذى استقى منه الباقلانى، قال الإمام عبد القاهر " إذا استقريت التشبيهات، وجدتَ التباعدُ بين الشيئين كلما كان أشدَّ، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوسُ لها أطرب، وكان مكانُها إلى أن تُحدث الأريحيّة أقرب، وذلك أن موضعَ

(١)السابق ٢٩٥ .

(٢)ينظر البيان والتبيين للجاحظ ٦٥/١ وما بعدها، ت عبد السلام هارون ط الخانجى

(٣)أسرار البلاغة ١٣٠ ت محمود شاكر ط الخانجى

الاستحسان، ومكانَ الاستظراف، والمُثيرَ للدفين من الارتياح، والمتألِّفَ للنافر من المَسَرَّةِ، والمؤلِّفَ لأطراف البَهْجة أنك ترى بها الشيئين مِثْلَيْن مُتَبَايِنَين، ومُؤْتَلِفَين مُخْتَلِفَين، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض، وفي خِلقة الإنسان وخِلال الروض "(1) .

وهذه محاولة لتطبيق " تأليف المُؤْتَلِف وتأليف المُخْتَلِف " على نماذج من الحديث الشريف، لا تزيد عن كونها محاولة تفتح الباب لا غير ؛ لأن استقصاء هذا فى الحديث الشريف يحتاج إلى دراسةٍ أوسع ونفْسٍ أهدأ ومجالٍ أرحب وفكرٍ أقوى وأنضج .

فمن " تأليف المُؤْتَلِف " فى الحديث الشريف:

١– عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضى الله عنه قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا " (2) .

المناسبة بين الرجلين هى البذل والعطاء، فالأول يبذل مما آتاه الله تعالى من المال فى الحق حتى يهلك ماله، والثانى يبذل مما آتاه الله تعالى من العلم والحكمة، فالجمع بينهما من المؤتلف ؛ لأن الجمع بين العلم والمال كثير الخطور فى العقول والدوران على الألسنة ؛ وتفوق الأمم ونهضتها وحضارتها فى الجمع بينهما، قال أحمد شوقى:

بالعلمِ والمالِ يَبْنِى الناسُ مُلْكَهُمُ   لم يُبْنَ مُلْكٌ على جَهْلٍ وإقْلالِ

وذكر الحديث فى جانب المنفق أنه يهلك ماله فى الحق، ولم يذكر فى جانب العالم نفاد علمه وحكمته من كثرة ما قضى وعلَّم، وفى هذا دلالة على أن العلم يزكو مع الإنفاق

٢– عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآَنِ – أَوْ تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو: فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا" (3) .

الحديث الشريف مكوَّن من ثمان جمل، كل جملة منها لؤلؤة مفردة، فلم تتداخل فيه الجمل وينصهر بعضُها فى بعض لتكوّن جملةً واحدة لا يتم معناها إلا بآخرها، كالذى تراه فى قوله جل جلاله (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ

(١)السابق

(٢)صحيح البخاري فى كتاب العلم باب الاغتباط فى العلم والحكمةبرقم ٧٣ .

(٣)صحيح مسلم فى كتاب الطهارة بَاب فَضْلِ الْوُضُوءِ برقم ٢٢٣ .

الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [يونس٢٤]، الآية عشر جمل بنى بعضها على بعض لتصير كلها جلمة كبرى لا يتم معناها إلا بآخرها ٠

كل جملة فى هذا الحديث لؤلؤة مستقلة، فيها معنى تامٌّ كافٍ، كجملة " الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ " التى إذا أفردتها من الحديث ونزعتها منه وقرأتها وحدها كانت كافية شافية تستقل بمعناها ولا تحتاج إلى ما بعدها، وكذا جملة " الْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ " إلى آخر الجمل، وهذا نمط غير الذى تتداخل فيه الجمل الصغيرة لتكوِّن جملةً كبيرة لا يتمُّ المعنى إلا بمجموعها ولا تتمُّ الصورةُ إلا باجتماع أولها مع آخرها، فجملة " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء " جزء من المعنى الكبير المركب من عدة جمل لا يتم المعنى إلا باجتماعها، والمعنى المفرد لهذه الجملة الجزئية وحدها لا يستقل بذاته ؛ لأنه لا معنى لتشبيه الحياة الدنيا بالماء إلا مقرونا بذكر قصة الماء ورحلته من وقت نزوله من السماء وإنباته الزرع إلى أن صار الزرعُ حصيدا تَذْرُوهُ الرياح ٠

والجمع بين الجمل الثمان من تأليف المؤتلف ؛ لأنها متقاربة المعانى، فالطهور والتسبيح والتحميد والصلاة والصبر والصدقة والقرآن الكريم – بعضها قريب من بعض، وليس بينها معنى جاء من مطارح بعيدة، ويمكن لمح التناسب بينها من وجهين:

الوجه الأول: أنها جامعة لطهارة الروح وطهارة البدن وطهارة المال، فطهارة الروح سارية فى أوصال الحديث، وهذا ظاهرٌ فى قوله " وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ – أَوْ تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " لأنه ذِكْرٌ لله جل جلاله يطهر الروح ويزكيها = وظاهرٌ فى الصلاة لأنها نور تعرج فيها الروح المؤمنة إلى أعلى المعارج والمراقى = وظاهرٌ فى الصدقة لأنها طهارة للنفس من داء البخل والأثرة والأنانية = وظاهرٌ فى الصبر لأنه طهارة للنفس بالصبر عن دنس المعاصى وطهارة لها بالصبر على الطاعات وعلى المكاره = والقرآنُ الكريم طهارة للروح أعلى وأتم وأكمل لأنه نور الله المبين وصراطه المستقيم ٠

وأما طهارة البدن ففى قوله " الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ " إذا كان الطهور بمعنى الطهارة بالماء عند الوضوء ؛ لأن الوضوء شطر الصلاة، فلا صلاة بدون وضوء، وهذا ما رجحه بعض العلماء فى معنى هذه الجملة وقوَّاه بأن " الإيمان " بمعنى الصلاة جاء فى قول الله جل وعلا " وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ " [البقرة١٤٣] [1]، وطهارة البدن أيضا فى قوله " وَالصَّلَاةُ نُورٌ " لأن الصلاة لا تكون إلا بعد الوضوء ٠

(١)ينظر فيض القدير ١/ ٤٨٤ حديث رقم ٩٦٦ ٠

وأما طهارة المال ففى قوله ﷺ " وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ " لأن الصدقة طهارة للمال، وهى برهان أى دليل وحجة للعبد يوم القيامة أنه أدى حق الله تعالى فى ماله ٠

والوجه الثانى: أن كل معنى فى الحديث له جناحان ينهض بهما، فقوله " الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ " إذا حملت الطهور بمعنى الطهارة من الشرك، فهذا الجناح الأول للمعنى ؛ لأن الإيمان يقوم على التخلى والتحلى، التخلى عن الشرك، والتحلى بالتوحيد ٠ وجاء الطهر بمعنى الطهارة من الشرك والباطل فى قوله تعالى " أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ " [المائدة٤١] أى من الشرك، وقوله تعالى " رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً " [البينة٢] أى من الباطل، فلا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها ٠ وتأويل الطهور بمعنى الطهارة من الشرك أولى من تأويله بالوضوء ؛ لأنه يحتاج إلى تأويل الإيمان بالصلاة، وما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل، أما قوله تعالى " وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ " فمجىء الإيمان فيه بمعنى الصلاة حَمَلَ عليه سياقُه الخاص، سياق تحويل القبلة، كما أن الطهور بمعنى الوضوء داخل فى جملة " وَالصَّلَاةُ نُورٌ " لأن الصلاة لا تكون إلا بعد الوضوء ؛ فيسلم الحديث من التكرار ٠

وقوله ﷺ " وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ – أَوْ تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " له جناحان، الأول: الثناء على الله تعالى ومدحه بما هو أهله، وهذا فى جملة " " وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ " ٠ والثانى: تنزيهه سبحانه وتعالى عن كل نقص، وهذا فى كلمة " سُبْحَانَ اللَّهِ "، وتخصيص التسبيح والتحميد من بين الأذكار لأنهما يجمعان تنزيهه تعالى عن كل نقص والثناء عليه بكل كمال، وهما جناحا الذكر

وفى الصلاة نوران: نور البدن بالوضوء، ونور الروح بما يسكنها من الخشوع والقرب من الله جل وعلا وعمارة الحياة بمنهاجه وشرعه ٠ وفى الصدقة طهارتان: طهارة النفس من البخل، وطهارة المال ٠ والصبر صبران: صبر عن المعصية بكف النفس عنها، وصبر على الطاعة وعلى المكاره والنوازل، وَالْقُرْآنُ إما حُجَّةٌ لَكَ وإما حُجَّةٌ عَلَيْكَ، وهذان احتمالان لا ثالث لهما، وقوله ﷺ " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو: فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا " صريح فى أن الناس قسمان لا ثالث لهما: قسم يعتق نفسه من عذاب الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح، وقسم يوبقها ويهلكها بالكفر والمعاصى ٠ ف " أو " فى الجملة للتقسيم ٠

وتقديم الطهارة من الشرك على ما بعدها من طهارة الروح بالذكر والعبادة لأن الإيمان بالله وحده هو أصل الدين، وكلمة التوحيد هى خير ما نطق به ناطق ٠ وتقديم التسبيح والتحميد على ما بعدهما من الصلاة والصدقة ٠٠إلخ لعظم أجرهما مع يسر مرامهما وخفتهما على اللسان وأنهما لا يحوجان إلى مشقة، وأجرهما فى ميزان العبد ما هو !! " الْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ – أَوْ تَمْلَأُ – مَا بَيْنَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " ٠ وتقديم الصلاة على الصدقة لأن الصلاة عماد الدين ومعراج العبد إلى رب العالمين ٠ وأُتْبِعَتِ الصلاة بالصدقة لأن الصلاة عبادة بدنية والصدقة عبادة مالية ؛ ولهذا جمع بينهما الذكر الحكيم فى أكثر المواضع كقوله تعالى " وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ " [البقرة١٧٧، التوبة١٨] " وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ " [البقرة٢٧٧، التوبة٥، ١١] "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ " [المائدة٥٥، النمل٣، لقمان٤] ٠ وذُكِرَ الصبر فى هذا السياق لأنه أكبر معين للعبد، قال تعالى " وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ " [البقرة٤٥]، فالصبر والصلاة ينيران للمؤمن دروبه ويكشفان له حقائق ما حوله إذا أعتمت عليه الأمور وأظلمت المسالك، تنجلى بهما الهموم والغموم، وينشرح الصدر ٠ ومن لطائف البيان النبوى أنه لما فصل بين الصبر والصلاة بالصدقة جعل الخبر عن الصبر والصلاة كأنه شىء واحد فهو قريب من قريب، أخبر عن الصلاة بلفظ " نور " وعن الصبر بلفظ " ضياء "، والنور والضياء يكشفان ويهديان ويمنحان الحياة حياة ٠ وذكر القرآن فى ختام هذه الخصال من ذكر العام بعد الخاص لأن القرآن الكريم هو الدستور الجامع لشعائر الدين وشرائعه ٠ ولا تخفى المناسبة بين كلمة " برهان " فى جانب الصدقة وكلمة " حجة " فى جانب القرآن، وكلاهما يفسر الآخر ويناديه ؛ ليستكثر العبد حجج إيمانه وبراهين صدقه يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ؛ فيعتق نفسه من عذاب الله ؛ ولهذا جاء بعده فى غاية المناسبة قوله ﷺ: " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو: فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا" ؛ وكانت هذه الجملة مسك الختام لأن من اغتنم حياته بما ذُكِرَ فى هذا الحديث وملأها بأنوار التوحيد وطهارة الروح والبدن والمال فقد أعتق نفسه من العذاب فى الآخرة، ومن عاش فى الظلمات ودَنَّسَ روحه وبدنه وماله فقد أوبق نفسه وأهلكها، والتقسيم الذى قامت عليه الجملة فى قوله " فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا" والتقسيم الذى قامت عليه الجملة التى قبلها فى قوله " وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ "، هذا التقسيم جعل بين الجملتين آصرة قربى وصلة رحم، فضلا عن التضاد الذى بين " مُعْتِقُهَا – مُوبِقُهَا" والتضاد الذى بين " " لَكَ – عَلَيْكَ"، وهذا كله من شريف النظم الذى ألف الجملتين، وشريفُ النظم لا تخطئه العين فى الحديث كله، وفى مجىء الجمل الثمان جملا ابتدائية تناسب وتناسق لا تخطئه العين، والانتقال من كلمة " شطر " إلى كلمة " تملأ " مناسب جدا لأن الشطر نصف الشىء، والامتلاء يدل على بلوغ الكمال والتمام، وكأن المؤمن يترقى بعد الإيمان بالله تعالى وتوحيده فى مراقى العلو والكمال بالذكر والتسبيح والتحميد ٠

والإخبار عن " الْحَمْدُ لِلَّهِ " بأنها " تَمْلَأُ الْمِيزَانَ " دليل على عظيم ثوابها وثقل أجرها، ولما أضيف التسبيح إلى التحميد زاد الثواب والأجر زيادة عجيبة فملأ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ وهذا من علامات النبوة ؛ لأنه لا يقول هذا إلا نبى كريم أطلعه الله تعالى عليه وأعلمه إياه ٠ والتدرج إلى الأعلى ظاهر فى الانتقال من الشطر إلى ملء الميزان ثم إلى ملء ما بين السماء والأرض، ويسير معه أيضا الانتقال من النور إلى الضياء ؛ لأن

الضياء أقوى ؛ ولذا استخدمه القرآن الكريم مع الشمس واستخدم النور مع القمر ؛ لأن القمر جرم معتم يعكس ما يقبسه من وهج الشمس وضيائها، قال تعالى " هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً " [يونس٥]، ولما كانت الصلاة مندرجة تحت نوع من أنواع الصبر، وهو الصبر على الطاعة، ناسب ذلك التعبير معها بالنور والتعبير مع الصبر بالضياء الذى هو أقوى وأشد ٠

ومن شريف النظم التعبير بالاسم فى قوله " فَبَايِعٌ – فَمُعْتِقُهَا – مُوبِقُهَا" وكل منها خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: فهو بائع، فهو معتقها، هو موبقها، والحذف منح العبارة جزالة لا تكون مع الذكر، وإيثار الاسم يفيد الثبوت والدوام، أى أن معانيها ثابتة دائمة لاتنمحى ولاتزول ؛ لأن اختيار الإنسان لطريق الخير أو الشر يجده مسطورا فى صحائفه ٠ والتعبير بالفعل المضارع فى رأس الجملة "كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو " لأن هذا الغدو نشاط يتجدد من الإنسان بسعيه وكدحه فى الحياة، فهو فى كل يوم يسعى ليثبت لنفسه عملا جديدا: خيرا يعتقها، أو شرا يوبقها، وفى المضارع استحضار لصورة كل إنسان وهو يغدو ويتحرك وينهض ليكتسب ويعمل ويضيف شيئا ما، وكأن المضارع يرينا صورته وهو يغدو، والغدو السير أول النهار، والمراد عموم السير فى أى وقت، واختيار الغدو للحث على اغتنامه لأنه وقت النشاط والسعى والبركة، ويا بُعْدَ بين من يخرج مبكرا ليعتق نفسه، ومن يخرج مبكرا ليوبقها ٠

والفاء فى " فبايع " للتفصيل، وفى " فمعتقها " للسببية [(١)]، وفاء التفصيل فيها إيجاز يناسب ما بنيت عليه العبارة من حذف المبتدأ ؛ لأنها أغنت عن أن يقال: فقسم بائع نفسه فمعتقها، وقسم بائع نفسه فموبقها، وهكذا يمضى البيان على طريق الجزالة والفخامة،وهذا ضرب من التناسب بشريف النظم٠

كما أفادت هاتان الفاءان الجليلتان سرعة انقضاء الأعمار وتتابع الأحداث تتابعا يذهل العقول، ففى كل وقت غدو وحركة يتبعها بيع للنفس إلى النجاة والفوز أو إلى الخسران والهلاك، ومن تأمل تتابع الأحداث وسرعة تقضيها علم أن الحياة دقائق وثوان، قال تعالى " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ " [يونس٤٥] ٠

ومن شريف النظم بناء الحديث على صور بيانية من تشبيه أو استعارة، فالإيمان صار شيئا محسوسا ينقسم شطرين، والطهور – بمعنى الطهارة من الشرك – صار جسما محسوسا يمثل أحد الشطرين، والحمد لله صارت جسما ثقيلا يملأ الميزان، ولكن هذا يكون يوم القيامة حقيقة لا خيال فيه ولا مجاز، قال تعالى " وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " [الأعراف٨]، وحديث صاحب البطاقة مشهور فى هذا المعنى،

(١)ينظر فيض القدير ١/ ٤٨٤ حديث رقم ٩٦٦ ٠

وثواب سبحان الله والحمد لله يملأ ما بين السماوات والأرض، قال فى تحفة الأحوذى: " معناه أنه لو قُدِّرَ ثوابُهما جسما لملأ ما بين السماوات والأرض " (١)

وتشبيه الصلاة بالنور والصبر بالضياء يظهر أثرهما فى هداية العبد حتى لا يضيع فى ظلام الكفر والمعاصى والخواطر الفاسدة والفلسفات الضالة، ونوازل الزمان التى تحطم الناس تحطيما ٠ والصدقة صارت كالدليل الملموس الذى يثبت أن المال لم يستحوذ على قلب العبد ولم يستعبده ٠ والقرآن الكريم كالمحامى يحتج لقارىء القرآن بالحجة بعد الحجة والدليل بعد الدليل لأنه كان من أهله العاملين به، أو أنه كان ممن يضيعون حروفه وحدوده ٠ والعبد الصالح يبيع نفسه لربه ويشترى الجنة " إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ " [التوبة١١١]، والعبد الشقى يبيع نفسه للشيطان فيهلكها، وبيع النفس استعارة، وكذا إعتاقها، شبهت النفس بالأسير يعتقها المؤمن من الأسر بالعلم النافع والعمل الصالح٠ وقيام الحديث على هذه الصور البيانية من التشبيه والاستعارة من شريف النظم الذى يزيده تناسبا وتآلفا ٠

وذكر المناوى عن القونوى كلمة جيدة فى قوله ﷺ فى ختام الحديث " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو،فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا" قال القونوي: " في هذا أسرار شريفة منها أن المصطفى ﷺ نبه على سر هو كالتفسير لقوله تعالى " وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا "[البقرة ١٤٨] ؛ لأنه قال كل الناس يغدو، وصَدَقَ ؛ لأن الاطلاع المحقق أفاد أنه ليس في الموجودات لأحد وقفة، بل كل إنسان سائر إلى المرتبة التي قدر الحق أنها غاية من مراتب النقص والشقاء ومراتب السعادة "(٢) ٠

ومن تأليف المُخْتَلِف فى الحديث الشريف:

١- (عن أبى بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْعَبْدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ،

وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ، فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ ") (٣) ٠

الجمع بين رجل من أهل الكتاب والعبد المملوك والسيد الذى أدب جاريته ثم أعتقها فتزوجها من الجمع بين المتباعدات، وإذا كانت المسافة بين العبد والسيد قريبة لما

(١)تحفة الأحوذى ٩/ ٤٩٨

(٢)فيض القدير ٤ / ٤٨٤ حديث رقم ٩٦٦

(٣)صحيح البخاري كتاب العلم باب تعليم الرجل أمته وأهلهبرقم ٩٧ ٠

بينهما من التضاد ؛ فإن مساواة العبد للسيد فى أن لكل منهما أجرين أمر يثير الانتباه، ويجعل العبد فى منزلة السيد فى نيل الأجرين، بل إن الحديث قدمه فى الترتيب على السيد لأنه قدم حق الله تعالى على حق مواليه، والكتابى مقدم عليهما لأنه كان خارجا عن شرف هذا الدين فلما آمن بالرسول ﷺ حاز الشرف الأعلى ونال كفلين من رحمة الله تعالى، وهذا ناظر إلى الآية الكريمة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الحديد٢٨] ٠

المناسبة بين هؤلاء الثلاثة أن كلا منهم (له أجران) لأنه عمل عملين فاستوفى بكل منهما أجرا، فكان له أجران، فهذا جامع مذكور بلفظه فى الحديث، وإن كانت الأطراف الثلاثة متباعدة:

الأول: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه فأخذ أجرا، ثم آمن بالرسول ﷺ فأخذ الأجر الثانى ٠ وقدم هذا الرجل رعاية لمقام الإيمان لأنه أصل العقيدة ٠

والثانى: عبد مملوك أدى الحقين: أدى حق الله تعالى فأخذا أجرا، وأدى حق مواليه فأخذ الأجر الثانى، ويدل على فطنة هذا العبد المملوك تقديمه حق الله تعالى على حق مواليه

والثالث: سيد كانت له أمة يطؤها فأدبها فاحسن تأديبها وعلمها فأ حسن تعليمها، فله أجر بذلك، ثم أعتقها فتزوجها فاستوفى الأجر الثانى ٠

وممن له أجران وإن لم يُذْكَر فى هذا الحديث المجتهد إذا أصاب، فله أجران، أجر لاجتهاده وأجر لإصابته ٠

٢- (عن مُعَاوِيَةَ رضى الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ؛ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ"[١]

الجمع بين قوله (وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ٠٠ إلخ) وقوله (مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ) من الجمع بين المتباعد ويمكن لمح المناسبة بينهما من تأويل " أمر الله " فى قوله " وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ" بالدين، أى قائمة على دين الله ثابتة محافظة عليه تحميه وتذود عنه كما يدل عليه التعبير ب " قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ " ؛ وبهذا نلحظ خيطا يصل بين الفقه فى الدين والقيام عليه، وهو أن القيام على الدين أساسه الفقه فيه والعلم والاجتهاد الذى يجد لما يطرأ فى كل عصر من الأقضيات والحوادث الجديدة ما يحل مغاليقها ويزيل إشكالها ويبين لاحب أمر الله تعالى فيها ؛ وهذا لا يستبين

(١)متفق عليه واللفظ للبخارى فى كتاب العلم باب مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ برقم ٧١ ٠

إلا باجتهاد أهل العلم الذين رزقهم الله عز وجل الفقه فى الدين وشاهدوا أفقه الرحب الذى يصلح لكل زمان ويسع ما يجد فى كل وقت ٠ إن قيام الأمة على دين الله واستظهارها به وحفظها له مرهون بفقه العلماء واجتهادهم ٠

وقوله ﷺ " لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ " يدل على شدة تمكن هولاء العلماء الذين يفتحون باجتهادهم آفاق المجهول، فقد علموا كيف يواجهون من خالفهم بالحجة والعلم والحكمة والموعظة الحسنة ؛ فلا يضرهم خلاف المخالفين ؛ لأن تمكنهم وسعة علمهم وفقههم كشف لهم حقيقة ذلك ٠ وفى قوله " حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ " إشارة إلى أن من رحمته جل جلاله أن لا يخلى كل زمان من هذا النمط من العلماء الذين تنجلى عنهم غياهب الجهل وغيايات أهل الباطل ولا يضرهم خلاف من خالفهم ؛ لثقتهم وثباتهم وتمكنهم، ويدل على أن غيابهم يعنى اقتراب أمر الله اى اقتراب الساعة التى من أشراطها قبض العلم بقبض العلماء حتى يتخذ الناس رؤوسا جهالا ٠

٣- (عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ؛ فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ)[1] ٠

الجمع بين قوله (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ٠٠) وقوله (الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ٠٠) من الجمع بين المتباعدات ؛ لأن كلا منهما من واد، ويمكن أن نلحظ بينهما مناسبتين، معنوية ولفظية:

أما المناسبة المعنوية فإن الشبهات التى تقف بين الحلال والحرام مِلاكُ الحُكْمِ فيها راجعٌ إلى القلب وما يعمره من الورع والخوف من الله جل جلاله، فهو الحَكَمُ والمُفْتِى وإن أفتى الناس وأفتَوا ؛ ولذا كان ذكر القلب فى ختام الحديث فى غاية الملاءمة ؛ لأن المسالك الشائكة التى يتردد فيها المرء بين القبول والرفض ولا يجد فيها نصا بينا بالحل والحرمة ، ولا يعلم الحلال والحرام فيها كثير من الناس – يعتصم العبد فيها بما يركن إليه قلبه ويرتاح إليه ضميره ٠

وأما المناسبة اللفظية ففى التشابه فى البناء التركيبى الذى بنيت عليه الجمل الأخيرة فى الحديث:

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى

(١)صحيح البخاري فى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه برقم ٥٢ ٠

أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ

أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ..

أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ

وهذا التشابه جعل قوله (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ..) امتدادا لقوله (أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ..)، وجعل الجمع بينهما كالجمع بين الأخ وأخيه، فلا تجد النفس فجوة فى الانتقال من حمى الملك صاحب السلطان والتصرف في ملكه إلى ذكر القلب صاحب السلطان والتصرف فى الجسد كله، جاء فى الحديث " **القَلْبُ مِلِكٌ ؛ فإذا صَلَحَ المَلِكُ صَلَحَتْ رَعِيَّتُه، وإذا فَسَدَ المَلِكُ فَسَدَتْ رَعِيَّتُه** " [1] ؛ فالقلب هو العالم بالله وهو العاقل لله وهو الساعي إلى الله وهو المتقرب إليه وهو المكاشف بما عند الله ولديه وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات يستخدمها القلب ويستعملها استعمال الملك لعبيده واستخدام الراعي لرعيته والقلب هو المخاطب والمعاتب والمطالب والمعاقب وهو المطيع بالحقيقة لله وإنما الذي ينشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله وإنما فواحش الأعضاء آثاره وإظلامه .. وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه وإذا جهل نفسه جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل .. فالقلب في وسط مملكة كالملك، وتجري القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده ؛ إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده، وتجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه، ويجري اللسان مجرى ترجمانه، وتجري الأعضاء المتحركة مجرى كتابه، وتجري الحواس الخمسة مجرى جواسيسه ؛ فيوكل كل واحد بأخبار صقع من الأصقاع، فيوكل العين بأنواع الألوان، والسمع بعالم الأصوات، والشم بعالم الروائح، وكذا سائرها ؛ فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويؤدونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد، ويسلم صاحب البريد إلى الخازن، وهي القوة الحافظة، ويعرضها الخازن على الملك ؛ فيقتبس منه ما يحتاجه في تدبير مملكته، وقمع عدوه الذي هو مبتلى به، ودفع قواطع طريق سفره عليه " [2].

٤- (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

" تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً،

(١)أخرجه الطبرانى فى الجامع الصغير ٤ / ٣٢٩ برقم ٥٧٥٢ مطبوع مع فيض القدير

(٢)فيض القدير ٤ / ٣٢٩ برقم ٥٧٥٢ بتصرف

وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِى هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ ") [1]

الحديث من تأليف المختلف ؛ لأنه جمع ثلاثة معان متباعدة ألف بينها شريف النظم، الأول: عن معادن الناس، والثانى: عن ولاية أمر الأمة، والثالث: عن ذى الوجهين، فما الرابطة التى تجمع هذه المعانى المتباعدة ؟ وكيف تتآلف وتتآخى ؟ ألف شريف النظم بين هذه المعانى من أقرب طريق ؛ إنه طريق الخير والشر الذى سرى فى أوصال المعانى الثلاثة فضمها أحسن ضم، أما عن معادن الناس فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، وأما عن ولاية أمر الأمة فخير الناس أشدهم كراهية لها، وأما عن ذى الوجهين فهو شر الناس ٠ الخيط الناظم للمعانى هنا هو بيان خير الناس وشر الناس، فخير الناس فى الإسلام هو ذلك الشريف فى الجاهلية الذى أسلم وفقُه ٠

ومن فقه الرجل الثانى الذى هو خير الناس فى مسألة الإمارة والولاية أنه أشد الناس كراهية للإمارة والولاية ؛ لأنها حمل ثقيل وأمانة عظمى يفر منها العاقل الرشيد ليبرىء ساحته من تبعاتها ٠

وأما ذو الوجهين فهو صورة مقابلة لصورة خير الناس لأنه بعيد كل البعد عن هذه الخيرية، بل مناقض لها كل المناقضة، فهو شر الناس والجمع بينه وبين خير الناس جاء على طريق الطباق، ولا شك فى أن ذا الوجهين ليس من خيار الناس ولا من أشرافهم ولا ممن فقُه وصار الفقه له سجية ٠

٥- (عن وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَى أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرِيَ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ، أَوْ يَقُولُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ) [2] ٠

الجمع بين الثلاثة من المختلف ؛ لأن كلا منها من واد، فأين النسب من الرؤيا ؟ وأين النسب والرؤيا من التبليغ عن الرسول ﷺ ؟ ولكن الحديث الشريف حقق التناسب بينها فى معنى جامع طوى ما بينها من مسافات بعيدة وجعلها متناسبة متآلفة ؛ ذاك أن الكذب يجمعها ويؤلف بينها، فالثلاثة من أعظم الفِرَى أى من أعظم الكذب والافتراء ؛ الأول كذبٌ فى النسب، والثانى كذبٌ فى قص الرؤيا، بأن يقول إنه رآى فى منامه كذا وكذا وهو لم يره، والثالث كذبٌ على خير الخلق ﷺ، بأن يقول عليه ﷺ ما لم يقل ؛ وبهذا صار الثلاثة شركاء فى معنى واحد، وإن كان كل منهم من واد ٠

(١)متفق عليه واللفظ للبخارى فى كِتَاب الْمَنَاقِبِبَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) برقم ٣٤٩٣ ٠

(٢)صحيح البخارى فى كِتَاب الْمَنَاقِبِ برقم ٣٥٠٩

٦- (عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ) (١) .

قوله ﷺ " وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ .. " من المختلف ؛ لأنه من وادٍ وسؤال الإمارة من وادٍ بعيد عنه، وألف الحديث بينهما بأن جعل لإيتاء الإمارة حالتين، ولليمين حالتين، فالإمارة إما عن مسألة وإما عن غير مسألة، واليمين إما أن تكون خيرا فيمضيها، وإما أن يكون غيرها خيرا منها فلا يمضيها ويكفر عن يمينه ويأتى الذى هو خير . ومما زاد هذا التناسب لطفا أن الحلف لم يذكر له فى الحديث إلا حالة واحدة وهى أن يرى غيرها خيرا منها، وطوى الحديث الحلف باليمين التى هى خير ؛ لأن إمضاء اليمين فى هذه الحالة أمرٌ ظاهر مُرَغَّبٌ فيه ؛ لأنه جارٍ على الأصل من إمضاء القسم، أما الحلف على يمين غيرُها خيرٌ منها فهى التى تحتاج إلى بيان لأنها خرجت عن الأصل، فالحالف فيها مأمور بالحنث فى يمينه والنكول عنها وعدم إمضائها لأن غيرها خيرٌ منها، والمؤمن مأمورٌ بالخير باحثٌ عنه لا يرضى به بدلا . ويلاحظ أن الذى يؤتى الإمارة عن غير مسألة يُعانُ عليها كما نص الحديث، ويفهم من هذا أن الحالف على الخير يُعانُ عليه كذلك، وهذا وجهٌ من التناسب .

(١)صحيح البخارى فى كِتَاب الْأَيْمَانِ وَالنُّذُورِبَاب قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى (لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ الْأَيْمَانَ) برقم ٦٦٢٢

الصورة الثانية: تناسب المقطع والمطلع وتناسب المعاقد

عُنِيَ العلماء فى بحث التناسب فى القرآن الكريم بالنظر فى علاقة المقاطع بالمطالع، أى علاقة آخر السورة بأولها، وأفرده العلامة السيوطى بمؤلَّف مستقل سماه " مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع "، كما عُنُوا بدراسة التناسب بين معاقد السورة، والمعاقد جمع مَعْقِد، والمَعْقِدُ يتكون من مجموعة من الآيات المتناسبة المتناسلة (١).

وهذه محاولة لبحث التناسب فى الحديث الشريف من هذه الوجهة التى تُعْنَى بالمناسبة بين المقطع والمطلع فى الحديث والمناسبة بين المعاقد التى يتألف منها، وأسأل الله جل جلاله العون والتوفيق، وآثرت بالدراسة حديثا قدسيا، حديث " يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي " لطوله وتعدد مقاطعه:

" عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضى الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ؛ فَلَا تَظَالَمُوا ٠

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ٠

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا ٠

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا ٠

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ٠

(١)ينظر الإمام البقاعى جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم د / محمود توفيق محمد سعد ص ٢٢٣ ط أولى ١٤٢٤ هـ ٠

يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ "[1] .

هذا حديث قدسى طويل، فيه عز الألوهية وجلالها، فمَنْ غيرُ الله جل جلاله يطيق أن ينسب لنفسه معنى من هذه المعانى ؟ هى كلها فوق طوق البشر، تنادى أنها من خالق القوى والقُدَر، الذى لا يهدى العباد كلهم غيره، ولا يطعمهم كلهم غيره، ولا يكسوهم كلهم غيره، ولا يغفر ذنوبهم كلهم غيره، ولا ينفعهم ولا يضرهم غيره، ولا يعطيهم كل ما يسألون غيره . هل فى طوق أحد من البشر أن يقول: " يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ "، معانى الحديث كلها ناطقة أنها لا تكون إلا من الله جل جلاله، وهذا رباط ممسك بحجزها .

والمناسبة بين مطلع الحديث " أوله " ومقطعه " آخره " أن أول الحديث ذكر أن الله جل جلاله تقدس عن الظلم: " يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ؛ فَلَا تَظَالَمُوا "، وختم الحديث بما يدل على أن الله جل جلاله لا يظلم أحدا من عباده، وذلك فى قوله جل جلاله " يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا " ؛ إن إحصاء الأعمال ثم وقوع الجزاء على قدرها بهذه الصورة العادلة التى عبرت عنها كلمة " أُوَفِّيكُمْ " هو غاية العدل الإلهى، قال تعالى " يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ " [النحل١١١]، وهذا رَدٌّ لمقطع الحديث على مطلعه، أو لعجزه على صدره، وذكر المناوى أنه قدم تحريمه الظلم على نفسه تمهيدا وتوطئة لقوله (وجعلته محرما بينكم)، وهذا وما قبله توطئة لقوله (فلا تظالموا) [2]، ولا يخفى ما فى التعبير عن تنزهه جل جلاله عن الظلم بالتحريم " حَرَّمْتُ " لبلوغ الغاية فى إثبات هذا التنزيه والتقديس عن الظلم، وذكر الطيبى أن " حرمت "بمعنى منعت، فهو استعارة تصريحية تبعية، شبه تنزهه عن الظلم بتحرز المكلف عما نهى عنه شرعا في الامتناع عنه، ثم استعمل في جانبه ما كان مستعملا في جانب المشبه به مبالغة، ويحتمل كونه مشاكلة لقوله تعالى: " وجعلته بينكم محرما "[3]، قال النووى: (قَالَ الْعُلَمَاء: مَعْنَاهُ تَقَدَّسْت عن الظلم وَتَعَالَيْت، وَالظُّلْم مُسْتَحِيل فِي حَقِّ اللَّه سُبْحَانه وَتَعَالَى ؛ كَيْف يُجَاوِز سُبْحَانه حَدًّا وَلَيْسَ فَوْقه مَنْ يُطِيعهُ ؟ وَكَيْف يَتَصَرَّف فِي غَيْر مُلْك، وَالْعَالَم كُلّه فِي مُلْكه وَسُلْطَانه ؟ وَأَصْل

(١)صحيح مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب بَاب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ برقم ٢٥٧٧

(٢)ينظر فيض القدير ٤ / ٤٧٦ حديث رقم ٦٠٢٠ .

(٣)ينظر المصدر السابق

التَّحْرِيم فِي اللُّغَة الْمَنْع، فَسَمَّى تَقَدُّسه عَنْ الظُّلْم تَحْرِيمًا لِمُشَابَهَتِهِ لِلْمَمْنُوعِ فِي أَصْل عَدَم الشَّيْء) (١) .

وبين المطلع والمقطع صور من المعانى تؤكد تنزهه جل وتقدس عن الظلم بضروب أخرى من التأكيد والتوثيق، فكيف يظلمهم وهم عباده ؟ وكيف يظلمهم وهو الذى جعل الظلم بينهم محرما ونهاهم عنه نهيا باتًّا" وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ؛ فَلَا تَظَالَمُوا " ؟ ثم كيف يظلمهم وهو الذى أنعم عليهم بما به قوام أرواحهم وأبدانهم ؟ وضرب الحديث مثلا لما به قوام أرواحهم بالهداية بعد الضلال وبمغفرة الذنوب فى قوله جل جلاله " يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ "، " يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ "، وضرب مثلا لما به قوام أبدانهم بالإطعام والكسوة فى قوله " يَا عِبَادِي،كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ٠ يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ "، الهداية تستر عُرْىَ القلوب والكسوة تستر عُرْىَ الأبدان، وقد امتن الله تعالى بهما على بنى آدم فى قوله تعالى " يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ " [الأعراف٢٦] ٠ قال أبو العتاهية:

إذا المَرءُ لَم يَلبَس ثِياباً مِنَ التُقى تَقَلَّبَ عُرياناً وَإِن كانَ كاسِيا

قال المناوى: " لما قرر حرمة الظلم على نفسه وعلى عباده أتبعه بذكر إحسانه إليهم وغناه عنهم وفقرهم إليه، ولما فرغ من الامتنان بأمور الدين شرع في الامتنان بأمور الدنيا، وبدأ بما هو أصل فيها ومكمل لمنافعها من الشبع واللبس إذ لا يستغنى عنهما، ومن ثم وصف الجنة بقوله " إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى " [طه١١٨] ؛ فقال (يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته) لأن الخلق ملكه ولا ملك لهم بالحقيقة وخزائن الرزق بيده فمن لا يطعمه بفضله بقي جائعا بعدله ٠٠ وهذا تأديب للفقراء، فكأنه قال: لا تطلبوا الطعمة من غيري فإن الذين استطعمتموهم أنا الذي أطعمهم " (٢) .

ولما كان قوله " يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ " يدل على كثرة خطايا العباد وتجددها نَبَّهَ جل جلاله على أنها لا تضره كما أن طاعتهم لا تنفعه وعرض الحديث هذا المعنى فى ثلاث صور:

الصورة الأول: أصل المعنى فى قوله جل وعلا: " يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي "، وتقديم الضر على النفع مناسب لما قبله من ذكر تجدد خطاياهم بالليل والنهار ٠

(١)شرح النووي على مسلم ١٣٢/١٦

(٢)فيض القدير ٤ / ٤٧٦ برقم ٦٠٢٠ بتصرف ٠

والصورة الثانية: عَرْضُ صورة هى أبلغ وأقصى ما يتصور من النفع، ثم الحُكْمُ بأنها لا تنفعه جل جلاله، وذلك فى قوله: " يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا "، إنها صورة عجيبة جمعت العباد كلهم من لدن أولهم "آدم" عليه السلام إلى آخرهم حتى قيام الساعة، وجمعت الإنس والجن جميعا، ثم جعلت هؤلاء كلهم متقين، بل كل واحد منهم بلغ من التقوى أعلاها فكانوا كأتقى رجل منكم، ثم حكم جل جلاله بأنها لا تزيد فى ملكه شيئا ٠

والصورة الثالثة: مقابلة للصورة السابقة، عرض أبلغ صورة فى الفجور والكفر والعصيان ثم الحكم بأنها لا تنقص من ملك الله شيئا " يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا "، وهى صورة لا تقل عجبا عن أختها، فالعباد أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كلهم كانوا على صورة واحدة، صورة أفجر رجل منكم، وهذه صورة لمجتمع بلغ الغاية فى الفجور، فكل واحد منه موصوف بأنه أفجر رجل، فليس فى المجتمع كله رجل فيه خير ٠

ولما ختمت الصور السابقة بأن ملك الله جل جلاله لا ينقص منه شيء بفجور العباد كلهم أولهم وآخرهم إنسهم وجنهم – جاءت الجملة التالية مؤكدة لهذا المعنى وهو أن ملكه جل جلاله لا ينقص أبدا فى صورة كأنها امتداد للصورة السابقة، فقال جل جلاله " يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ "، وهى صورة تشبه التى قبلها فى جمع العباد كلهم أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم، ثم ذكر هنا شيئا جديدا وهو أنهم " قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ " وهذه صورة لا عهد للإنسان بها وإن عُمِّرَ ما عُمِّرَ نوح، وهى قريبة جدا من مشهد الحشر ٠

وجاء مقطع الحديث وهو قوله " يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ " كالتحذير من الاغترار بكرم الله تعالى الذى يعطى العباد أولهم وآخرهم إنسهم وجنهم دون أن ينقص من ملكه شيء، حتى لا يتكل العبد على كرم الله تعالى ويترك العمل أو يتقاعس عنه، فقال بأسلوب القصر " إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ " وساق ذلك مساق الأمر المعلوم ؛ لأن " إنما " تستعمل فى الأمور المعلومة التى لا يجهلها المخاطب ولا ينكرها، كما أكد المعنى بذكر ضمير الشأن والقصة " هى " الذى يثير الانتباه ؛ لأنه لا يعود على شيء مذكور قبله كما هو الأصل فى الضمائر ؛ ولذا كان فى ذكره فخامة وجزالة، وفيه تشويق إلى معرفة ما يفسِّرُه؛ لأنك لا تقدمه فى العبارة إلا وقد نويت أن تخبر عنه خبرا ما، فيبقى السامع فى تشوق إلى الخبر، فإذا ذُكِرَ تمكن فى النفس لأنه جاء بعد التوطئة له فوقع

فيها وقوع المأنوس به، كما ذكر الإمام عبد القاهر[1] ٠ مقطع الحديث فيه إيجاز شديد لقصة العباد فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنما هى أعمالهم يحصيها الله تعالى لهم، وأما فى الآخرة فيوفيهم الله تعالى حسابهم عليها ؛ فهذه الجملة تجمع المعانى التى نشرها الحديث نشرا وتركزها تركيزا، فتتلاقى فيها جمل الحديث وتكون هى كالخاتمة أو المَصَبِّ الذى يجرى إليه النهر ويتدفق إليه رحيق البيان، وهذا من المقامات السخية التى يرد فيها ضمير الشأن والقصة، كما ترى فى قوله جل شأنه " فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ " [الحج٤٦]، وتسجيل أعمال العباد كلها بحيث لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، فهو كهدايتهم وإطعامهم وكسوتهم ومغفرة ذنوبهم وإعطائهم كل ما سألوا، هذه كلها أمور لا تكون إلا منه جل جلاله، " وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً " [الكهف٤٩]، وقال " أُحْصِيهَا لَكُمْ " ولم يقل: أحصيها عليكم ؛ إيثارا لجانب الخير وحثا على أن يملأ العباد صحائفهم بما ينفعهم٠وخاتمة الحديث قسمت العباد قسمين لا ثالث لهما: من وجد خيرا،ومن وجد غير ذلك، " فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ " ولم يقل: فقد سَعِدَ أو فقد فاز، حتى يكافىء العبد هذا الخير بالثناء على الله وحده ؛ لأنه لا مكافأة له إلا به ؛ ولذا كثر فى الذكر الحكيم حَمْدُ أهل الجنة لله جل جلاله، كما فى قوله تعالى " وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ " [الأعراف٤٣]، " دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " [يونس١٠] ٠ وقوله " وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ " لأنه هو الذى ظلم نفسه بتفريطه فى جنب الله الذى أطعمه وسقاه وكساه وبين له طرق الهدى وبين له عظيم مغفرته وسعة عطائه ولكنه أعرض عن ربه واتبع هواه ٠ ومن التناسب افتتاح هذا المقطع واختتامه بأسلوب القصر " إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ – فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ " فالأمر محسوم واضح، ولا يهلك على الله إلا هالك ٠ وذكر المناوى أنه جل جلاله قال " ومن وجد غير ذلك " أي شرا، ولم يذكره بلفظه ؛ تعليما لخلقه كيفية أدب النطق بالكناية عما يؤذي أو يستهجن أو يستحى منه، أو إشارة إلى أنه إذا اجتنب لفظه فكيف فعله ٠٠ وختم الحديث بأن من وجد شرا فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ؛ لأنه باق على ضلالته الذي أشار إليه بقوله "كلكم ضال " ؛ وفى هذا ردٌّ لعجز الحديث على صدره وإحكام للتناسب بين أوله وآخره [2] ٠

وفى الحديث ضرب آخر من التناسب وهو شريف النظم الذى ألف بين الجمل، وقَسَّمَ الحديثَ فيما بين المطلع والمقطع ثلاثةَ معاقد، لكل معقِد منها سَمْتُه وطريقةُ بنائه

(١)ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ص ١٣٢ ت شاكر ط الخانجى
(٢)ينظر فيض القدير ٤ / ٤٧٦ حديث رقم ٦٠٢٠

المميِّزة له، وإن سرى فى مجموعها هذا التناسب المعنوى الذى مر آنفا، فهو يسرى فيها كلها كما تسرى الروح فى البدن أو كما يجرى النَّفَسُ فى النَّفْس ٠ وافتتاح جمل الحديث كلها بالنداء " يا عبادى " يجعل هذا النداء رباطا ممسكا بالحديث كله ؛ ويكرر تنزهه جل جلاله عن الظلم ؛ فكيف يظلمهم وهم عباده ؟ إن عبوديتهم له جل جلاله تجلب لهم الرحمة واللطف والكرم لا الظلم، وقال المناوى "كرر النداء تنبيها على فخامة الأمور " [1] ٠

المعقد الأول: الجمل الثلاث المفتتحة بكلمة "كُلُّكُمْ " بعد النداء " يَا عِبَادِي ":

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ٠

ومقصد هذا المعقد الامتنان على العباد بأن الله جل جلاله أنعم عليهم بما به صلاح أرواحهم وأبدانهم، وافتتحت كل جملة فيه بكلمة " كُلّ " – وهى أمُّ معانى العموم – وأضيفت إلى ضمير العباد:" كُلُّكُمْ " لتدل على أنه لا يشذ فردٌ واحد عما يذكر بعدها من المعنى، ووقوعها مبتدأ للتشويق إلى معرفة الخبر الذى يستغرق معناه كل العباد، ومجىء الخبر مفردا " ضَالٌّ – جَائِعٌ – عَارٍ " وعود الضمير عليه بالإفراد فى" هَدَيْتُهُ – أَطْعَمْتُهُ – كَسَوْتُهُ " ليستحضر كل عبد على انفراد حاله قبل أن ينعم الله تعالى عليه بما أنعم، كان ضالا جائعا عاريا، فهداه الله وأطعمه وكساه، فتعظم فى عينيه نعمة الله تعالى عليه، ولا تغيب هذه النعم عنه بشهوده إياها عند غيره من العباد، فينظر إلى وجودها فيهم ويغفل عن وجودها فيه، فيقل استحضاره نعمة الله تعالى عليه أو ينمحى، والتعبير بضمير الجمع فى " فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ – فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ – فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ " مناسب للعموم الذى افتتحت به الجملة فى قوله "يَا عِبَادِي –كُلُّكُمْ" ٠

ولا يخفى الحُسْنُ فى توزيع الكلمات فى الجمل الثلاث وتوافقها توافقا تاما فى مجىء كل كلمة مناسبة فى الوزن للتى تناظرها، وكأن الكلمات فى الجمل وضعت " بهندسة " متقنة، وضع فيها كل شىء فى موضعه الأشكل، ولا يدلك عليه شىءٌ أشرف ولا أنبل من أن تتأمله بنفسك:

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ ؛ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ٠

(١)المصدر السابق

إن مشاهدة هذا الجمال فى البناء، وتتابع الصياغة على هذا الحَذْوِ المتحد والنسج الواحد، شيءٌ يُمْتِعُ السمع والبصر والفؤاد، ولا تشبع النفس من حلاوته وتناغمه وتناسقه وتآلفه، وكأنه بهذا النغم الواحد المتكرر، يُرَدِّدُ على الآذان: " فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ " ٠

المعقد الثانى: الجملتان المفتتحتان بكلمة " إِنَّكُمْ " بعد النداء " يَا عِبَادِي ":

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ؛ فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ٠

يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ٠

ومقصد هذا المعقد بيانُ كثرة خطايا العباد وأن مغفرة الله تمحوها، وأن خطاياهم مهما بلغت فإنها لا تضر الله سبحانه، كما أن طاعتهم مهما بلغت فإنها لا تنفع الله جل جلاله ٠ وصنعة البيان وحَذْوُه فى قوله " فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ " هى هى التى مضت فى المعقد الأول فى قوله " فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ – فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ – فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ " فهى امتداد لها لأن طريقة السبك فى هذه الجمل كلها واحدة، وبهذا اتصل بناء هذا المعقد ببناء المعقد الأول عن طريق هذه الجملة التى هى كالأخت الشقيقة للجمل السابقة ٠ ومن التناسب بين الجملتين اللتين قام عليهما هذا المعقد بناؤهما على أسلوب التوكيد: توكيد صدور الخطأ من العباد ب " إنَّ " فى قوله " إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ "، وقوبل ذلك بتأكيد صدور المغفرة منه جل جلاله فى قوله " وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا " بتقديم المسند إليه " أنا " على الخبر الفعلى " أغفر " للدلالة على القصر، والمعنى لا يغفر الذنوب إلا أنا، والقصر يدل على التأكيد وزيادة، كما قوبل عموم الخطأ منهم واستغراقه الليل والنهار بعموم مغفرته جل وعلا جميع الذنوب، وهذا واضح فى كلمة " جميعا " فى قوله " وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا " ؛ حتى لا يقنطوا من رحمته ولا يحبطوا بكثرة ذنوبهم، وهذا المعنى كقوله جل جلاله فى الذكر الحكيم: " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ " [الزمر٥٣]، والنداء فى الحديث ب " يَا عِبَادِي " هو نفسه النداء فى الآية، والتعبير بالمضارع الدال على تجدد صدور الخطأ منهم ووقوعه منهم بالليل والنهار فى قوله " إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ " كأنه عَرْضٌ آخر لقوله تعالى فى الآية الكريمة " الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ "، وقوله فى الحديث " وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا " كقوله فى الآية " إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً "، وذكر المناوى أن العموم الذى دل عليه الاستغراق ب " أل " فى كلمة " الذنوب " ودل عليه لفظ " جميعا " يُسْتَثْنَى منه الشركُ وما لا يشاء الله تعالى مغفرته، وفي هذه الجمل توبيخ يستحي منه كل مؤمن ؛ لأنه إذا لمح أن

الله تعالى خلق الليل ليطاع فيه سرا، استحيا أن ينفق أوقاته في الليل إلا فيه، كما أنه استحيا بطبعه من صرف شئ من النهار حيث يراه الخلق على المعصية (١) .

وأما التوكيد فى قوله جل جلاله " يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي " فظاهر فى التأكيد ب " إنَّ " فى صدر الجملة، وب " لن " الدالة على تأبيد النفى فى "لَنْ تَبْلُغُوا "، وفى دخولها على الفعل " تَبْلُغُوا " الدالّ على أنهم ليسوا أهلا لذلك أصلا، ليسوا أهلا لأن يضروه جل جلاله ولا لأن ينفعوه، ولو قيل: إنكم لن تضرونى ولن تنفعونى ؛ لما أفاد نزع ذلك من طباعهم وأنهم لا يصلحون لذلك أصلا . وذكر المناوىأن المراد أنه جل جلاله لايقع عليه ضرر ولا نفع أصلا ؛ لأنه تعالى غني مطلق والعبد فقير مطلق، والفقير المطلق لا يملك للغني المطلق ضرا ولا نفعا ؛ فما اقتضاه ظاهر الخبر من أن لضره أو نفعه غاية لكن لا يبلغها العبد غير المراد (٢) . والمقابلة بين " ضَرِّي – نَفْعِي " " فَتَضُرُّونِي – فَتَنْفَعُونِي " أظهرت هذا المعنى إظهارا، فالعباد لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فكيف يملكون لله تعالى نفعا أو ضرا ؟

المعقد الثالث: أطول معاقد الحديث، وهو مكون من ثلاث جمل طوال متشابهات فى طريقة الحَذْوِ والتركيب:

" يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا .

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا .

يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ " .

وهذا المعقد امتداد فى المعنى للذى قبله ؛ لأنه يؤكد أن خطايا العباد مهما بلغت فإنها لا تضر الله سبحانه، كما أن طاعتهم مهما بلغت فإنها لا تنفع الله جل جلاله، ولولا أن هذه الجمل الثلاث لها سَمْتٌ خاص فى

التركيب يغاير سمت الجملتين السابقتين لجعلتها مندرجة معهما فى المعقد الثانى . والضميمة البنائية التى كانت الوصلة بين المعقدين هى أسلوب المقابلة الذى جمعهما على

(١)ينظر فيض القدير ٤ / ٤٧٦حديث رقم ٦٠٢٠

(٢)ينظر المصدر السابق .

خطٍّ بيانى واحد: فخُتِمَ المعقد السابق بالمقابلة بين " ضُرِّي – نَفْعِي " و" فَتَضُرُّونِي – فَتَنْفَعُونِي "، وكان أسلوب المقابلة القطب الذى عليه المدار فى الجمل الثلاث التى قام عليها هذا المعقد، مقابلة "أَوَّلَكُمْ " ب "آخِرَكُمْ "، وَ" إِنْسَكُمْ "ب"جِنَّكُمْ"، و" أَتْقَى ب " أَفْجَرِ"، و" زَادَ " ب " نَقَصَ"، فالمقابلة تجمع هذه المعانى كلها وتصل المعقدين برباطٍ ناظم ٠

ومن التناسب بين الجمل الثلاث أسلوب التكرار الذى يمسك بالجمل حتى كأنها جملة واحدة ولُحْمَةٌ واحدة، واتحاد الجملتين الأولى والثانية فى توزيع الكلمات – بحيث نرى الثانية هى الأولى نفسها إلا فى كلمتين اثنتين حوَّلَتا مسار المعنى، كلمة " أَفْجَرِ " التى وضعت فى موضع "أَتْقَى " وكلمة " نَقَصَ " التى وضعت فى موضع " زَادَ " – لا شك فى أن هذا فيه مفاجأة تزيد الكلام محبة إلى النفوس وتزيد النفوس تعلقا به، وكذا يقال فى تحويل الكلام من " كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ " و " كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ " إلى " قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ " فيه مفاجأة أخرى بعرض صورة جديدة عن الصورتين السابقتين، وهذا شىء يستثير النفوس، وهذه الجملة التى تَحَوَّلَ عندها الكلامُ وهى " قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ " حُذِيَتْ على مثال أختيها: " كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ " و " كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ "، فهذه الجمل الثلاث ابتدأت بالفعل الماضى " كانوا – قاموا"، بعده الجار والمجرور " عَلَى أَتْقَى – عَلَى أَفْجَرِ – فِي صَعِيدٍ " كما أُكِّدَ المفرد النكرة فى الجمل الثلاث بلفظ " واحد ": " رَجُلٍ وَاحِدٍ – رَجُلٍ وَاحِدٍ – صَعِيدٍ وَاحِدٍ "، وهذا الاتحاد فى طريقة السبك يجعل الكلام يترقرق فيه ماء واحد ٠

ومن تناسب الجملتين الأوليين ذِكْرُ القلب فيهما، فى قوله " كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ " وقوله " كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ "، وهو يدل فى الجملة الأولى على الإخلاص فى التقوى وأنها عمرت محلها وهو القلب، فليست تقوى بالمظهر دون أن يكون لها رصيدٌ فى القلب، تقوى القلب ليس فيها رياء، قال تعالى " ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ " [الحج ٣٢]، فهؤلاء جميعا كانوا على مثال واحد وطراز واحد، كانوا كأتقى رجل منكم، وهذا المجتمع المثالى الأتقى العجيب لا يزيد فى ملك الله تعالى شيئا، وذكر القلب فى الجملة الثانية يدل على تأصل الفجور فى قلب أفجر رجل كما تأصلت التقوى فى قلب أتقى رجل، ولو قيل: كانوا على أتقى رجل، أو على أفجر رجل – لما أفاد هذا المعنى ٠

ومن التناسب بينهما أيضا ذِكْرُ الرجولة فى الجملتين، فى قوله " كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ "، وقوله " كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ "، وهو فى الأولى يدل على أن الرجولة الكاملة فى تقوى الله جل جلاله، ومع ذلك فإن هذا لا ينفع الله تعالى شيئا،

وفى الثانية يدل على أن هذا الأفجر كان رجلا، وهذا يعنى جده ونشاطه فى الفجور وإبلاءه رجولته وفتوته وقوته فيه، ومع ذلك فإنه لا يضر الله تعالى شيئا .

ومن التناسب بين الجملتين تنكير "شيئا " فى قوله " مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا " وقوله " مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا "، والتنكير يدل على العموم أى أنهم لم يزيدوا فى ملكه أىَّ شىء، ولم ينقصوا منه أىَّ شىء، وذكر المناوى أن التنكير هنا يفيد التحقير، أى ولو كان هذا الشىء حقيرا تافها[1] .

قال الطيبي: لم يرد أن العباد كلهم بمنزلة رجل واحد هو أتقى من الناس، بل كل واحد من العباد بمنزلته ؛ لأن هذا أبلغ ؛ كقولك: ركبوا فرسهم، وعليه قوله تعالى " خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ " [البقرة ٧]، وإضافة أفعل إلى نكرة مفردة يدل على أنك لو تَقَصَّيْتَ قلبَ رَجُلٍ رَجُلٍ بل كُلَّ الخلائق لم تجد أتقى قلبا من هذا الرجل [2].

ومن شريف النظم فى الجملة الثالثة أن كلمة " قاموا " تدل على التأهب والاحتشاد، " وقال القاضي: قيد السؤال بالاجتماع في أرض واحدة ومقام واحد لأن تزاحم السؤال مما يذهل المسؤول ويبهته ويعسر عليه إنجاح مآربهم والإسعاف بمطالبهم " [3].

وقوله " فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ "، الفاء فى هذا النسق تمحو الزمن وتقول إنه لا فاصل بين قيامهم فى هذا الصعيد الواسع وسؤالهم وإعطاء الله تعالى كل واحد منهم مسألته " قاموا – فَسَأَلُونِي – فَأَعْطَيْتُ "، أى أنهم قاموا وهدفُهم واحد وعزمُهم معقودٌ على شىء واحد وهو سؤال الله جل جلاله، وكل منهم مستحضرٌ مسألتَه، مُتَخَيِّرٌ لها أحسن تخير، جامعٌ كُلَّ ما يصلحه ويُسْعِدُهُ دنيا وأخرى، والفاء فى " فَسَأَلُونِي " تفيد أنهم لم يأخذوا شيئا من الوقت فى التفكير فى مسائلهم التى يريدون من الله جل جلاله ؛ لأنها مُعَدَّةٌ حاضرة فى نفوسهم، والفاء فى " فَأَعْطَيْتُ " أعجب ؛ لأنه إذا كان من المعجز إعطاء هذا الجمع المشهود من العباد كل ما سألوا فى وقت واحد لأن هذا الإعطاء واسع ومتنوع يخرج عن طوق البشر – فإن وقوع ذلك عقب سؤالهم مباشرة وبلا فاصل أو مهلة أعجب وأدخل فى الإعجاز ؛ فليس هناك زمنٌ ما لتدبير ما يحتاجه كل سائل على قدر سؤاله، فهذا كله يجده السائل فى يديه فى لمح البصر بل هو أقرب، وإذا كان هذا كله من العجائب فإن قوله جل جلاله " مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي " فوق ذلك كله، لأنه فوق تصور العقول وفوق مقاييسها ومألوفها ؛ ولذا قربه الله جل جلاله إلى عقولنا بتشبيهٍ أخرج هذا المعنى المعقول فى صورة

(١)ينظر فيض القدير ٤ / ٤٧٦ حديث رقم ٦٠٢٠
(٢)المصدر السابق
(٣)المصدر السابق بتصرف

محسوسة، صورة الْمِخْيَط – الإبرة – إذا أُدْخِلَ البحر، فإنه لا ينقص من البحر شيئا، وهذا من الباب الذى ترى التشبيه فيه يُخْرِجُ ما لم تَجْرِ به العادة إلى ما جرت به العادة كما كان يقول أبو عيسى الرُّمَّانى – رحمه الله تعالى – وفتح به بابا من النظر فى التشبيه لم تنتفع به الدراسة البلاغية انتفاعا يليق بغزارة ما وراءه من المعانى، ولم تمنحه من التدبر فى الصور البيانية ما كان ينبغى أن تمنحه، فأُغْلِقَ هذا الباب ولم يوسعه النظر والتأمل والتدبر وكثرة التطبيق وغزارة الشواهد التى تجرى عليه فى البيان العالى [1]، إن عدم نقصان الشىء بعدما يؤخذ منه هذا المقدار الكبير الذى يسع ما سأل العباد كلهم أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم أمرٌ لم تألفه مقاييس البشر ولم يروا له نظيرا ولا مثيلا ولا مقاربا، فشبهه الحديث الشريف بالإبرة حين توضع فى البحر ثم تخرج منه، فإنها لا تنقص من ماء البحر شيئا، وهذه صورة مألوفة جارية فى الواقع يجريها الناس ويشاهدونها فهى قريبة جدا، وعدم نقصان البحر بسببها أمرٌ يُعْرَفُ بالبديهة فلا يحتاج إلى علم ولا إلى سعة معرفة، ومما زاد صورة المشبه به دقة ونفاذا حتى لا ينتهى الحُسْنُ فيها إلى غاية اختيار كلمة " الْبَحْرَ "، ولم يقل: إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الماء، مع أن الإبرة إذا أدخلت الماء، ولو أَقَلّ ماء، فإنها لن تُنْقِصَ منه شيئا، إلا أن البحر آكد فى إفادة عدم النقصان وانعدام الأثر، فالبحر لم يتأثر ماؤه بالإبرة حين أدخلت فيه ولا حين أخرجت منه، ولا ريب فى أن مَن حمل إبرةً وذهب بها إلى البحر وهو يظن أن الإبرة ستُنْقِصُ من ماء البحر شيئا – لا ريب فى أنه مُوَسْوِس، أى مختلط العقل كالمجنون، وكذلك من ظن أن ما عند الله جل جلاله ينقص ولو أدنى شىء عندما يعطى العباد كلهم أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كل ما سألوا فهو كهذا المُوَسْوِس المجنون، وأن اختلاط عقله وغفلته شىء ظاهر جدا ؛ لأنه يمارى فى المحسوس ولا يمارى فى المحسوس إلا ممسوس ٠ وفى اختيار كلمة البحر شىءٌ آخر أهم وأجل وهو أن الماء القليل لا يناسب ما يقابله فى صورة المشبه، لا يناسب سعة عطاء الله جل جلاله ٠

قال النووى – رحمه الله تعالى – (قَالَ الْعُلَمَاء: هَذَا تَقْرِيب إِلَى الْأَفْهَام، وَمَعْنَاهُ لَا يَنْقُص شَيْئًا أَصْلًا كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيث الْآخَر: " لَا يَغِيضهَا نَفَقَة " أَيْ لَا يَنْقُصهَا نَفَقَة ؛ لِأَنَّ مَا عِنْد اللَّه لَا يَدْخُلهُ نَقْص، وَإِنَّمَا يَدْخُل النَّقْص الْمَحْدُود الْفَانِي، وَعَطَاء اللَّه تَعَالَى مِنْ رَحْمَته وَكَرَمه، وَهُمَا صِفَتَانِ قَدِيمَتَانِ لَا يَتَطَرَّق إِلَيْهِمَا نَقْص، فَضَرَبَ الْمَثَل بِالْمِخْيَطِ فِي الْبَحْر، لِأَنَّهُ غَايَة مَا يُضْرَب بِهِ الْمَثَل فِي الْقِلَّة، وَالْمَقْصُود التَّقْرِيب إِلَى الْإِفْهَام بِمَا شَاهَدُوهُ ؛ فَإِنَّ الْبَحْر مِنْ أَعْظَم الْمَرْئِيَّات عَيَانًا، وَأَكْبَرهَا، وَالْإِبْرَة مِنْ أَصْغَر الْمَوْجُودَات،مَعَ أَنَّهَا صَقِيلَة لَا يَتَعَلَّق بِهَا مَاء ٠ وَاَللَّه أَعْلَم) [2]

(١)ينظر النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ص ٨٣

(٢)شرح النووي على مسلم ١٣٢/١٦

الصورة الثالثة: مِلاكُ المعنى فى الحديث

فى الحديث النبوى أحاديث يقوم كلٌ منها على عدة جمل، ثم نجد جملة واحدة منها فيها مِلاكُ معنى الحديث ؛ لأنها تجمع المعانى الجزئية فى الحديث وتُؤَلِّفُ بينها وتصل بعضَها ببعض كما تجمع الأُمُّ أولادَها وتضمُّهم إليها وتَحْنُو عليهم وتُؤَلِّفُ بينهم، فما من معنى فى الحديث إلا ويتصل بها بوجهٍ من التناسب، ويرتبط بها برباطٍ ناظم، وكأن هذه الجملة الأُمُّ تَبْسُطُ يَدَها لما بين يديها وما خلفَها من الجمل، وتَلُمُّ شَمْلَ المعانى وتَعْصِمُها من الشتات والتَّفَرُّق ٠

وليس هذا الوصفُ مقصوراً على الجملة – وإن كان فيها كثيرا ظاهرا – بل توصف به بعض الألفاظ المفردة، فنجد الكلمة المفردة تفتح باب التناسب فى الحديث كله، وتربط معانيَه وتُؤَلِّفُ بينها، ومنها كلمة " إِضَاعَةَ " فى حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ") (1)، فهذه الثلاثة التى كرهها الله تعالى لهذه الأمة كلٌ خصلة منها من وادٍ، فالأولى فى الكلام، والثانية فى المال، والثالثة فى السؤال أى طلب الحاجة والمعروف من الناس، والمعنى الجامع بينها أنها كلها (إضاعة) لأشياء مهمة، وصرح الحديث بلفظ " إضاعة "وهو اللفظ الدال على المناسبة بين الثلاثة فى قوله " وَإِضَاعَةَ الْمَالِ " ٠

فالأول إضاعة للوقت الذى هو أثمن ما يملكه الإنسان، إضاعة له فى غير طائل: فى الثرثرة والخوض فيما لا يفيد، ولاحظ البدء ب " قيل " التى تدل على التمريض أى أنه قول ضعيف، وأن المتكلم يحشد الكلام الضعيف الواهى ليستكثر به ويملأ به المجلس ويضيع الوقت والعمر، وتلك من القواصم ٠

والثانى إضاعة المال وهو عصب الحياة ؛ فإضاعته إضعاف للفرد والمجتمع والأمة ٠

والثالث إضاعة للحياء وإذهاب لماء الوجه بكثرة سؤال الناس واستجدائهم والإلحاح عليهم فى المسألة، وقد قالالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ " (2) ٠

وبين " إِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ " طباق خفى ؛ لأن الأول عنده مال فأضاعه، والثانى فقير ليس عنده مال فأذهب ماء وجهه وأضاع حياءه ٠ وفى كراهة كثرة السؤال معنى

---

(1)متفق عليه واللفظللبخاري فى كتاب الزكاة بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا " وَكَمْ الْغِنَى، برقم ١٤٧٧

(2)متفق عليه واللفظ للبخاري فى كتاب الزكاة باب من سأل الناس تَكَثُّراً، برقم ١٤٧٤٠

آخر، وهو كراهة أن يعيش المرء عالة على غيره معتمدا على سواه فى مطعمه ومشربه وملبسه وكل شئونه، ووراء هذا دعوة إلى العمل والإنتاج وذم الكسل والتواكل والبطالة ٠

ولا يخفى أن الثلاثة يؤلف بينها أيضا شريف النظم بحذوها على مثال واحد، فكل واحد منها مبنى على كلمتين لا ثالث لهما " قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ "، وهذا تناسق وتآلف، زاده وحسَّنَه هذا السجع الذى اتفقت فيه الكلمات الأخيرة فى الوزن والقافية فى " قَال–مَال " وفى القافية دون الوزن فى " السُّؤَالِ " ٠

أما الجملة التى هى مِلاكُ المعنى فى الحديث الجامعةُ لشمل المعانى المؤلفةُ بينها، فقد تكون فى أول الحديث، وقد تكون فى وسطه، وقد تكون فى آخره:

أولاً: مِلاكُ المعنى فى أَوَّل الحديث

١– (عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى ؛ وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ ") [(١)] ٠

الجملة الأولى فى هذا الحديث هى مِلاكُ المعنى ؛ لأنها جمعت المعطِى والسائل، فالمعطِى صاحب اليد العليا، والسائل صاحب اليد السفلى، ثم ذكر الحديث بعد ذلك أربع جمل: جملتان تعودان إلى صاحب اليد العليا، وجملتان تعودان إلى صاحب اليد السفلى ٠

أما اللتان تعودان إلى صاحب اليد العليا فهما قوله:

" وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ – وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى "

وحددت الجملة الأولى منهما أن أولى الناس بالصدقة هو من تعول ؛ لأن الصدقة عليه صدقة وصلة رحم ؛ فهو أولى بأن تعفه عن المسألة وتسد خلته وحاجته، وسكت الحديث عن الأَوْلَى بالصدقة بعدَه، ولعل فى ذلك إشارة إلى أن لا ينتقل إلى الصدقة على من سواه حتى يُغْنِيَه ويكفَّه عن المسألة وينقله من الفقر والحاجة إلى العفة والستر، فخير الصدقة ما أغنى ٠ وذكر المناوى أن الانتقال من الجملة الإخبارية إلى الإنشائية يفيد الاهتمام بشأن الانفاق على من تعول [(٢)]، والجملة الثانية " وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى " تقول لصاحب اليد العليا إن خير الصدقة صدقته وهو غنى غير محتاج إلى ما يتصدق به، فمن عليه دَيْنٌ ينبغى أن يقضى دينه قبل أن يتصدق ؛ لأنه يضر صاحب الدين ؛ ولا ضرر ولا ضرار ٠

وأما الجملتان العائدتان إلى صاحب اليد السفلى فهما قوله ﷺ:

---

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري فى كتاب الزكاة باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، برقم ١٤٢٧

(٢)ينظر فيض القدير ٢ / ٣٧ حديث رقم ١٢٦٠٠

" وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ – وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ "

وهما لا تحضان صاحب اليد السفلى على أخذ الصدقة والإحسان من الغنى صاحب اليد العليا، بل على التعفف عن المسألة والترفع عن أن يكون صاحب يد سفلى ؛ فإذا ترفع عن ذل السؤال واستغنى بما أعطاه الله وإن كان قليلا فإن الله تعالى يعفه ويغنيه ٠ وفى هذا كما ذكر ابن بطال " ندب إلى التعفف عن المسألة، وحض على معالى الأمور، وترك دنيئها، والله يحب معالى الأمور " (١)، وصوغ فعل الشرط وجوابه من مادة واحدة " يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ – يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ " فيه دليل على أن الجزاء من جنس العمل وأن الله جل جلاله يعينه على ما قصد ويعطيه ما سأل ما دامت همته قد ترفعت عن سؤال الناس ولجأ إلى الله الغنى الكريم ٠

جملة " الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى " هى رأس المعنى فى الحديث وجِذْرُه، والمعانى بعدها تَبَعُ لها ومحمولةٌ عليها كأنها الفروع والأغصان، ومن البلاغة العالية فى هذا الحديث أن كل جملة من جمله الخمس تصلح أن تقال وحدَها وتُفْرَدَ عن أخواتها وتكونَ مَثَلاً شَرُوداً فى معناها، اقرأ كل جملة من الحديث وحدَها:

" الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى "

" ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ "

" خَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى "

" مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ "

"مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ "

كل جملة منها فيها من العموم والصدق وقوة البصيرة ونور الحقيقة وسداد المعنى وبراعة المبنى ما يُغْنِى ويَكْفِى ويَشْفِى ويَهْدِى ويُصْلِحُ ويُسْعِد ٠

ومن شريف النظم الذى زاد البيان اتحادا وتلاؤما التعبير ب " الْيَدُ الْعُلْيَا " ولم يقل: إن الغنى المعطِى خير من الفقير الآخذ ؛ بل آثر الرسول ﷺ ذكر اليد لأنها هى المعطية، ووصفها بالعلو تكريما لها وتعظيما وحثا على الصدقة والجود والعطاء، وهذا العلو شبك الكلام عن صاحب اليد العليا وجعله مؤتلفا ؛ لأن التعبير بكلمة " ظَهْرِ " فى قوله " وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى " فيها معنى العلو أيضا ؛ فكأنها ردٌّ لآخر الكلام عن صاحب اليد العليا على أوله ؛ لأن الظهر ما يركبه الإنسان من الإبل والخيل وغيرها، وفى هذا دلالة على علو المتصدق وتمكنه من الغنى، أى أن عنده ما يكفيه ويكفى من يعوله ويزيد ٠ ونظير

(١)شرح ابن بطال لصحيح البخارى ٣ / ٤٣١

هذا التشابك نجده فى تكرار كلمة " خير " فى قوله " الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى " وقوله " وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى "، وهذا تلاقٍ آخر وتواصل وتشابك ٠

أما قوله ﷺ :

" وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ
وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ "

فحذو الجملتين على مثال واحد مما يؤلف بينهما ويزيدهما تلاؤما وتناسبا، وفعل الشرط فيهما فيه إقبال العبد على الله تعالى، وجواب الشرط فيه إقبال الله تعالى على العبد، وختم كل جملة منهما باسم الجلالة " الله " يدل على أن العبد أوى إلى ركن شديد ولجأ إلى من بيده كل شيء وله الخلق والأمر، وأنه ملأ قلبه ثقة بالله، وتوكلا على الله، وأن الله جل جلاله لن يضيعه ؛ ولهذا أظهر الاسم الجليل " الله " فى موضع الإضمار فى قوله " يُغْنِهِ اللَّهُ " ولم يقل: ومن يستغن يغنه ٠

ولغزارة ما فى هاتين الجملتين من معان نجدهما مذكورتين بنفس الترتيب فى حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ؛ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: " مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ " [(١)]، وزاد فى هذا الحديث " وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ " وهو على حذو " وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ"، قال الباجى فى معنى قوله ﷺ " وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ ": " يريد أنه أمر يدوم له الغنى به لأنه لا يفنى، ومع عدمه لا يدوم له الغنى بما يُعْطَي وإن كَثُر لأنه يَفْنَى [(٢)] ٠

٢- (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

" أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ؛ فَقَالَ: " يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ "، وَقَالَ: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ " ٠ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ ؛ أَشْعَثَ، أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ،

---

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري فى كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة، برقم ١٤٦٩٠

(٢)المنتقى للباجى ٩/ ٥٠٩

وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟!) [1] .

مِلاكُ المعنى فى هذا الحديث وعمودُه فى مطلعه " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا " لأن الحديث بعده يتناول شيئا واحدا وهو المطعم والمشرب: يقبله الله تعالى إذا كان طيبا، ولا يقبله إذا كان خبيثا، والطيب هو الحلال الخالص، وطِيْبُ المطعم والمشرب مطالبٌ به المؤمنون جميعا، والأنبياء مطالبون به قبل المؤمنين ؛ حتى يكونوا قدوة لهم ؛ ولهذا قدمهم فى الحديث ؛ وفى هذا تأكيد لطيب المطعم والمشرب؛ لأن الله جل جلاله بدأ فيه بالصفوة المختارة وهم الأنبياء، وجعل المؤمنين فيه كالأنبياء ؛ فلا استثناءات ولا تمييز، بل الآيتين الكريمتين فى هذا الشأن حُذِيَتا حذوا واحدا من الابتداء بأسلوب النداء " يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ "، " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا " ثم جاء الأمر بعده صريحا للأنبياء وللمؤمنين بالأكل من الطيبات " كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ " ، "كُلُوا

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ "، واتحاد حذو الآيتين يناسب استواء الأنبياء والمؤمنين فى عموم الأمر بطيب المطعم والمشرب ٠ والاستشهاد بالآيتين الكريمتين أنموذج من استنابط الرسول ﷺ من الذكر الحكيم٠

أما إذا كان المطعم غير طيب بأن كان حراما، فلم يقل الرسول ﷺ: إن الله لا يقبله لأنه غير طيب ؛ بل أخرج هذا المعنى العقلى فى صورة محسوسة تُدْرَكُ بالبصر: صورة رجل يطيل السفر، فهو ليس مسافرا فقط، بل يطيل السفر، والسفر الطويل فيه مشقة متواصلة ؛ فهو مثيرٌ للشفقة على هذا المسافر الذى صار نِضْوَ أسفار، وأَثَرُ السفر بادٍ عليه فهو " أَشْعَث، أَغْبَر "، الشعث يدل على أنه بعيد عهد بإصلاح شعره وتهذيبه، والغبرة تدل على أن غبار السفر عالق ببدنه وثيابه وجسمه وشعره، وهذه حال تدعو إلى الشفقة والرقة لحاله ٠ ولم يقل الرسول ﷺ: إن هذا الرجل دعا فلم يستجب له ؛ لأن مطعمه حرام، بل قال " يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ "كناية عن شدة ضراعته واجتهاده فى الدعاء، أى أنه لا يدعو بلسانه فقط، بل بلسانه وقلبه ويديه، وهذا أرجى للقبول ؛ لأن الله جل جلاله يستحى من عبده إذا بسط إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين، وهذا تصوير لحال الرجل وهيئته عند الدعاء لا نجده إذا قيل: يدعو الله، وحُذِفَ الفعل " يقول " من العبارة إذ التقدير: " يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يقول: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ "، وفى الحذف دلالة على شدة تلبسه بالدعاء والضراعة واجتهاده فى ذلك، وتكرار نداء ذى الجلال " يَا رَبِّ، يَا رَبِّ " يدل على مزيد الضراعة واللجأ والاستعطاف ٠ وتنتهى صورة هذا الرجل فى الحديث عند قوله " يَا رَبِّ، يَا رَبِّ "، وينقطع كلامه ليظل هناك متضرعا لاجئا إلى الله تعالى سائلا طالبا منه جل جلاله، وقد سكت الحديث عن ذكر مسألته وبسط حاجته حتى لا يُشْغَل المتلقى بمعرفة ما يطلبه هذا الرجل بل يُفَرَّغ لتَلَقِّى

(١)رواه مسلم فى كتاب الزكاة بَاب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم ١٠١٥

المهم وهو أن هذا الرجل الذى صور الحديث حاله لا يستجيب الله تعالى دعاءه، بل يبعُدُ جدا أن يستجيب دعاءه، وهذا مفادٌ من قوله ﷺ " فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟! "، وهذا استفهام يدل على استبعاد الاستجابة له ٠

ويلاحظ تكرار الخبر فى قوله " وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ "، ولم تجمع هذه المبتدءات ويخبر عنها خبرا واحدا بأنها " حرام " للدلالة على استقلال كل واحد منها بالحرمة، وأن كل منها كافٍ فى رد دعائه، فكيف إذا اجتمعت ؟ وفى التكرار فضل تأكيد وإشباع بإشاعة كلمة " حرام " مع كل واحد من هذه الضرورات التى لا يستغنى عنها أحد، وهل يستغنى أحد عن المطعم والمشرب والملبس والغذاء ؟

الحديث كله مربوط بقوله ﷺ فى أوله " إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا "، وإذا ضرب الحديث مثالا بطيب المطعم والمشرب والملبس والغذاء، فهو مثالٌ تقاس عليه آلاف الأمثلة، تقاس عليه الكلمة والقول والعلم والعمل والعبادة والصدقة ٠٠٠ إلخ، فالكلمة الطيبة يقبلها الله تعالى لأنها عمل طيب والله لا يقبل إلا طيبا، والكلمة الخبيثة لا يقبلها الله تعالى لأنها كلمة غير طيبة ٠٠

ومن شريف النظم الذى ألف بناء الحديث أنه ذكر أربعة أشياء، كل واحد منها حريٌّ بقبول الدعاء واستجابته: الأول: السفر الطويل ؛ وللمسافر دعوة لا تُرَدّ ٠ والثانى: الشعث والغبرة، لما جاء فى الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ " (١) ٠ والثالث: مد اليدين إلى السماء، عن سَلْمَانَ – ﷺ– قَالَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ ؛ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا" (٢).

والرابع: تكرار النداء بما يدل على شدة الضراعة والإلحاح فى الدعاء، والله عز وجل يحب المُلِحِّينَ فى الدعاء ٠ هذه الأربعة قابلها بأربعة أوصاف، كل وصف منها حريٌّ بعدم قبول الدعاء، الأول: مَطْعَمُهُ حَرَامٌ ٠ الثانى: مَشْرَبُهُ حَرَامٌ ٠ الثالث: مَلْبَسُهُ حَرَامٌ ٠ الرابع: غُذِيَ بِالْحَرَامِ ؛ فهذه أربعة بأربعة، وهذا تناسق يزيد الحديث تناسبا وتماسكا وتراحما ٠

وتأخير الحكم بعدم استجابة دعاء هذا المسافر إلى آخر جملة فى الحديث "فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟! " فيه مزيد تشويق إلى معرفة قبوله من رفضه، ليكون قوله ﷺ " فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟! " هو الصوت الأخير والصدى الأخير الذى يتردد فى الأسماع وتعيه القلوب ؛ لأن النفوس مولعة بمعرفة النتائج والخواتيم، وآخر الكلام أبقى فى النفس ؛ ولذا

(١)رواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب بَاب فَضْلِ الضُّعَفَاءِ وَالْخَامِلِينَ برقم ٢٦٢٢
(٢)رواه أبو داود فى كتاب الصلاة باب الدعاء ٤/٣٥٩ برقم ١٤٧٤

لم يقل الرسول ﷺ عن هذا المسافر إنه يكثر الدعاء فلا يستجاب له ؛ مع أنه أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ؛ لأن مطعمه حرام ٠٠إلخ ٠

وذكر الشراح أن الطَّيِّب فِي صِفَة اللَّه تَعَالَى بِمَعْنَى الْمُنَزَّه عَنْ النَّقَائِص، وَهُوَ بِمَعْنَى الْقُدُّوس، وَأَصْل الطِّيب الزَّكَاة وَالطَّهَارَة وَالسَّلَامَة مِنْ الْخُبْث ٠ وقَوْله: " ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُل يُطِيل السَّفَر " مَعْنَاهُ – وَاَللَّه أَعْلَم –: أَنَّهُ يُطِيل السَّفَر فِي وُجُوه الطَّاعَات كَحَجٍّ وَزِيَارَة مُسْتَحَبَّة وَصِلَة رَحِم وَغَيْر ذَلِكَ، ومع هذا فلا يستجاب له لكون مطعمه ومشربه وملبسه حرام، فكيف بمن هو منهمك في الدنيا أو في مظالم العباد أو من الغافلين عن أنواع العبادات والخير ؟ وقوله (وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ) أَيْ رُبِّيَ بِالْحَرَامِ، وذُكِرَ بَعْدَ قَوْلِهِ (وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ) إِمَّا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْمَطْعَمِ حَرَامًا التَّغْذِيَةُ بِهِ، وَإِمَّا تَنْبِيهًا بِهِ عَلَى اِسْتِوَاءِ حَالَيْهِ أَعْنِي كَوْنَهُ مُنْفِقًا فِي حَالِ كِبَرِهِ وَمُنْفَقًا عَلَيْهِ فِي حَالِ صِغَرِهِ فِي وُصُولِ الْحَرَامِ إِلَى بَاطِنِهِ، فَأَشَارَ بِقَوْلِهِ (مَطْعَمُهُ حَرَامٌ) إِلَى حَالِ كِبَرِهِ وَبِقَوْلِهِ (وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ) إِلَى حَالِ صِغَرِهِ، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى أَنْ لَا تَرْتِيبَ فِي الْوَاوِ ٠ قَالَ الْقَارِي: وَذَهَبَ بعضُهم إِلَى الْوَجْهِ الثَّانِي، وَرَجَّحَ الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ الْوَجْهَ الْأَوَّل، وَلَا مَنْعَ مِنْ الْجَمْعِ ؛ فَيَكُونُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ عَدَمَ إِجَابَةِ الدَّعْوَةِ إِنَّمَا هُوَ لِكَوْنِهِ مُصِرًّا عَلَى تَلَبُّسِ الْحَرَامِ ٠ قال النووى: وَهَذَا الْحَدِيث أَحَد الْأَحَادِيث الَّتِي هِيَ قَوَاعِد الْإِسْلَام وَمَبَانِي الْأَحْكَام (١)

٣– عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ " (٢) ٠

مِلاكُ المعنى وعمودُه فى الحديث فى جملته الأولى " إِنَّ اللَّه كَتَبَ الْإِحْسَان عَلَى كُلّ شَيْء " ؛ لأن الحديث بعدها ما هو إلا مثلان ضربهما الرسول صلى الله علتيه وسلم للإحسان الذى كتبه الله تعالى فى القتل وفى الذبح، فهذا الحديث أشبه شىء بحديث " إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا " فى كون جماع المعنى وعموده فيهما فى مطلع الحديث، وبقية الحديث مثلان: مَثَلٌ لطيب المطعم، ومَثَلٌ لخبث المطعم، فصورة بناء المعنى فى الحديثين واحدة، والجملة الأم عمود المعنى فيهما جاءت فى أُنُفِ الحديثين، وقام بناؤها على العموم والتأكيد، أما العموم فقوله " إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا " شامل لكل شىء، صادق على كل ما يصدر عن الفرد أو الجماعة من قول وفعل وسلوك، فما كان منه حلالا خالصا أُرِيدَ به وجه الله تعالى فهو الطيب الذى يقبله الله تعالى، ولا يقبل شيئا سواه ٠ والعموم فى قوله: " إِنَّ اللَّه كَتَبَ الْإِحْسَان عَلَى كُلّ شَيْء " ظاهر جدا فى لفظ " كل " وهو أصل ألفاظ

(١)ينظر شرح النووي على مسلم ٧/ ١٠٠ وتحفة الأحوذى ٧/ ٣٠٩

(٢)صحيح مسلم فى كتاب الصيد والذبائح بَاب الْأَمْرِ بِإِحْسَانِ الذَّبْحِ وَالْقَتْلِ وَتَحْدِيدِ الشَّفْرَةِ برقم ١٩٥٥

العموم، وفى لفظ " شيء " الذى أضيف إليه، وهو فى العموم كلفظ " كل " أو أعمّ، فكل شيء كتب الله تعالى عليه الإحسان كائنا ما كان، لا فرق بين القليل والكثير والعظيم والحقير، فالإحسان شيء كتبه الله تعالى عليه، وهاتان الجملتان:

" إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا "

" إِنَّ اللَّه كَتَبَ الْإِحْسَان عَلَى كُلّ شَيْء "

تتلاقيان وتتعانقان لأن العمل غير المتقن عمل غير طيب، والله تعالى طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، هاتان الجملتان كلٌّ منهما أصل ينبغى أن تقوم عليه الحياة ؛ فلا سبيل إلى نهضة الأمم ورقيها ورفعتها إلا بهذا، وهذا من جوامع الكلم النبوية التى جمعت صلاح الأمة فى جملتين لا تتجاوزان سطرا واحدا، وغرس الرسول ﷺ كل جملة منهما غرسا جعلها تاجا فى سياقها ورأسا ؛ لأنها تاج ورأس فى صلاح الأجيال، وبهذا ومثله علا بيان المصطفى ﷺ ٠

وأما التوكيد الذى بنيت عليه الجملتان، فكل منهما مؤكدة ب " إنَّ " وهى أم أدوات التوكيد، وأمهات المعانى الجامعة يناسبها التوكيد بأمهات أدوات التوكيد، ثم أكدت الجملة الأولى بأسلوب القصر "لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا "، وأكدت الثانية بالتعبير بلفظ " كَتَبَ " الدال على زيادة التوثيق بالكتابة التى لا تنمحى ولا تزول، ولفظ " كَتَبَ " جعل الإتقان والتجويد ليس ترفا ولا نافلة بل هو مكتوب على العبد كما كتب الله تعالى عليه الصلاة والصيام والزكاة والحج ٠ إن لكل شيء حقا، وحق العمل ممن يقوم به أن يتقنه، فالعمل ينتظر ويترقب أن يجيء إليه من يوفيه حقه هذا، ولفظ " كَتَبَ " دالٌّ على أن الإحسان دَيْنٌ مستحَقٌّ فى عنق كل شيء حتى يؤديه ويقضيه عنه من يُقَيِّضُه الله تعالى ويوفقه لذلك، وإلا بقى الدَّينُ ينتظر هذا المؤيَّد الموَفَّق ٠

ذكر الشراح أن " على " فى قوله ﷺ " إِنَّ اللَّه كَتَبَ الْإِحْسَان عَلَى كُلّ شَيْء " بمعنى " فى " ؛ لأن الإحسان والإتقان يكون فى الشيء، ونظير ذلك قوله تعالى " وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) [البقرة١٠٢] أى فى ملك سليمان، أو تكون " على " فى الحديث بمعنى " إلى " أى كتب الإحسان إلى كتب شيء [١] ٠ وإذا كانت " على " بمعنى " فى " فهى تدل على الظرفية والوعاء أى أن الإحسان فى الشيء يكون مظروفا فيه مبثوثا فى جميع أجزائه مطويا فى حناياه، وهذا معنى جيد يفيد أن الإتقان يكون شاملا للشيء بجميع عناصره وخطواته وأجزائه، فما من جزء فيه أو عنصر أو مرحلة أو خطوة إلا وهى متقنة، وهذا كأنه يصف طريق الإتقان فى كل شيء وصفا دقيقا وهو إتقان عناصره وأجزائه عنصرا عنصرا وجزءا جزءا، وبهذا يكون الإتقان مبثوثا فى الشيء كله، ولكن التعبير ب " على " الدال على الاستعلاء فيه معنى آخر أسخى وأملأ، وهو الدلالة على أن

(١)ينظر فيض القدير ٢/ ٢٤٥ حديث رقم ١٧٦١ وعون المعبود ٨/ ١٠ حديث رقم ٢٧٩٧

الإحسان أى الإتقان يكون ظاهرا على كل شيء، بارزا طافيا يراه كل من نظر إليه ويشهد له بذلك ؛ فلم يعد الإتقان خافيا مطويا فى حنايا الشيء بل صار مستعليا بارزا ظاهرا مستعلنا ناطقا بأن هذا شيء مميَّز كل التميُّز ؛ لأنه متقَنٌ غاية الإتقان، عليه بصمة صاحبه وسيما نفسه، وهذا المعنى لا نحسه فى التعبير ب " فى "، ولا نجده أيضا فى القول بأن الإحسان ضُمِّنَ معنى التَّفَضُّل، كأنه قيل: إن الله كتب التفضُّلَ على كل شيء، ولا نجده أيضا فيما قاله الشُّمُنِّى من أن " على " بمعنى اللام متعلقة بالإحسان، وقال: لا بد حينئذ من " على " أخرى محذوفة بمعنى الاستعلاء المجازى متعلقة ب " كتب "، والتقدير: كتب على الناس الإحسان لكل شيء[1] ٠

ولم يذكر الحديث من الإحسان إلا إحسان القتل وإحسان الذبح، وهذا شيء غريب جدا ؛ لأنه ترك الإتقان فى كل شيء يزاوله الإنسان من العبادات والمعاملات والعلم والعمل والإنشاء والبناء وتربية الأجيال وتهذيبهم وتقويم السلوك، وإحسان الرئيس فيما هو فيه من أمر الرعية، وإحسان الوزير والخفير والغنى والفقير ٠٠ ترك الحديث هذا وغيره مما به عماد النهضة وإصلاح الفرد والأمة، واختار إحسان القتل وإحسان الذبح ؛ لأنه وإن كان قتلا أو ذبحا، فهو إحسان وإتقان فى التعامل مع " الرُّوْح " وهى من أمر الله وحده "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً "[الإسراء٨٥]، هو إحسان مع صنعة الخالق جل جلاله وإعجازه فى خلق الإنسان والحيوان، فيامن تقتل مجرما وجب عليه القصاص، ويامن تذبح حيوانا – تَذَكَّرْ أنك تهدم مخلوقا هو بنيان الله ؛ فأحْسِنْ إليه وارْفقْ به ولا تعذبه، تذكر أنك تقتل أكرم ما خلق الله " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً " [الإسراء٧٠]، وتذكر أنك تذبح حيوانا لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا ما هو أصغر منه حجما لن يخلقوه " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ " [الحج٧٣] ٠ الحديث دعوة إلى الإحسان إلى الإنسان والحيوان عندما يكون كل منهما فى أضعف أحواله لحظة مفارقة الحياة بالقتل أو الذبح، وهل يملك المقتَصُّ منه الذى حانت منيتُه أن يدفع عن نفسه؟ وهل يملك الحيوان والطائر الذى وقع تحت شفرة لذابح من أمره شيئا ؟ قال العلامة المناوى " خص هاتين الصورتين مع أن صور الإحسان لا تُحْصَرُ لكونها الغاية فى إيذاء الحيوان، فإذا طلب الإحسان إليهما فغيرُهما أولى "[2]، وهذا كلام جيد مع إيجازه ٠

وفيه معنى آخر وهو التنبيه على أن لا يستهين الإنسان بذلك ؛ لأن تعذيب المقتول عند قتله والحيوان عند ذبحه يتنافى مع المروءة ومع الإحسان ؛ ولذا كان من آداب

(١)ينظر تحفة الأحوذى ٤/ ٤٢

(٢)فيض القدير ٢/ ٢٤٥ حديث رقم ١٧٦١

الذبح وسننه أن لا تحد الشفرة أمام الحيوان عند ذبحه، وأن لا تذبح الشاة أمام الشاة، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، أن رجلا أضجع شاة يريد أن يذبحها وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: " أتريد أن تميتها موتات !! هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها"[(١)] .

قَالَ اِبْن أَبِي جَمْرَة فى حديث الأمر بإحسان القتل والذبح:" فِيهِ رَحْمَة اللَّه لِعِبَادِهِ حَتَّى فِي حَال الْقَتْل، فَأَمَرَ بِالْقَتْلِ، وَأَمَرَ بِالرِّفْقِ فِيهِ . وَيُؤْخَذ مِنْهُ قَهْره لِجَمِيعِ عِبَاده لِأَنَّهُ لَمْ يَتْرُك لِأَحَدٍ التَّصَرُّف فِي شَيْء إِلَّا وَقَدْ حَدّ لَهُ فِيهِ كَيْفِيَّة "[(٢)] .

وإحسان القتل اختيار أسهل الطرق وأقلها إيلاما وأسرعها زهوقا، والمراد بالقتل هنا المستحق قصاصا أو حدا غير قاطع طريق وزان محصن لإفادة نص آخر التشديد فيهما، ويدخل فى إحسان القتل قتل الحشرات والسباع، وإحسان الذبح يكون بالرفق فلا يصرع الذبيحة بعنف ولا يجرها لتذبح بعنف وبإحداد الآلة بعيدا عنها وتوجيهها للقبلة والتسمية والإجهاز بمر السكين عليها بقوة ليسرع موتها فترتاح ونية التقرب بذبحها وشكر الله حيث سخرها لنا ولم يسلطها علينا، ولا يذبحها بحضرة أخرى سيما أمها أو بنتها، وبإراحتها إى إمهال سلخها حتى تبرد روحها ؛ فإن سلخها قبل أن تبرد روحها تعذيب . وقوله " وَلْيُحِدَّ أَحَدكُمْ شَفْرَته، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَته " كالبيان للإحسان فى الذبح . قال النووى: وَهَذَا الْحَدِيث مِنْ الْأَحَادِيث الْجَامِعَة لِقَوَاعِد الْإِسْلَام[(٣)]

ثانياً: مِلاكُ المعنى جملةٌ فى وسط الحديث

(عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ "، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنْ الْمَغْرَمِ !! فَقَالَ " إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ")[(٤)] .

مِلاكُ المعنى فى هذا الدعاء النبوى الشريف فى قوله " وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ " وهى جملة فى وسط الحديث ؛ أى أنها ليست أول جملة فيه ولا آخر جملة، والحديث كله يرجع إلى هذه الجملة، فهى له كالأم ؛ ففتنة المسيح الدجال وفتنة

(١)المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب الذبائح ٤/ ٢٣١، ٢٣٣وقال " هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه "

(٢)فتح البارى ٩/٦٤٤

(٣)ينظر شرح النووى لصحيح مسلم ١٣/١٠٧ وفيض القدير ٢/ ٣١١ وعون المعبود ٨/ ١٠ حديث رقم ٢٧٩٧

(٤)متفق عليه واللفظ للبخاري فى كتاب الأذان باب الدعاء قبل السلام، برقم ٨٣٢

المأثم والمغرم – أى الوقوع فى الإثم والغُرْم وهو الدَّيْن – من فتن المحيا، أى الفتن التى تكون زمن الحياة، وفتنة المحيا تشملهما كما تشمل غيرهما من الفتن التى تقع فى الدنيا ؛ فهما منها بمنزلة الخاص من العام ٠ وعذاب القبر من قتنة الممات، أى التى تحدث بعد الموت ؛ وعلى هذا فجملة " وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ " هى الأصل الذى ترد إليه جمل الدعاء الأربع ٠

(قَالَ اِبْن دَقِيق الْعِيد: فِتْنَة الْمَحْيَا مَا يَعْرِض لِلْإِنْسَانِ مُدَّة حَيَاته مِنْ الِافْتِتَان بِالدُّنْيَا وَالشَّهَوَات وَالْجَهَالَات، وَأَعْظَمهَا وَالْعِيَاذ بِاَللَّهِ أَمْر الْخَاتِمَة عِنْد الْمَوْت . وَفِتْنَة الْمَمَات يَجُوز أَنْ يُرَاد بِهَا الْفِتْنَة عِنْد الْمَوْت أُضِيفَتْ إِلَيْهِ لِقُرْبِهَا مِنْهُ، وَيَكُون الْمُرَاد بِفِتْنَةِ الْمَحْيَا عَلَى هَذَا مَا قَبْل ذَلِكَ، وَيَجُوز أَنْ يُرَاد بِهَا فِتْنَة الْقَبْر، وَقَدْ صَحَّ فِي حَدِيث أَسْمَاء فِي الْجَنَائِز " إِنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْل أَوْ قَرِيبًا مِنْ فِتْنَة الدَّجَّال " وَلَا يَكُون مَعَ هَذَا الْوَجْه مُتَكَرِّرًا مَعَ قَوْلُهُ " عَذَاب الْقَبْر " لِأَنَّ الْعَذَاب مُرَتَّب عَنْ الْفِتْنَة وَالسَّبَب غَيْر الْمُسَبَّب ٠٠ وَهَذَا مِنْ الْعَامّ بَعْد الْخَاصّ، لِأَنَّ عَذَاب الْقَبْر دَاخِل تَحْت فِتْنَة الْمَمَات، وَفِتْنَة الدَّجَّال دَاخِلَة تَحْت فِتْنَة الْمَحْيَا) [1]

قال المناوى: " ذكرت فتنة المسيح مع شمول فتنة المحيا والممات لها لعظمها وكثرة شرها ؛ أو لكونها تقع في محيا جماعة مخصوصة وهم الموجودون حال خروجه " [2] ٠ وقال ابن بطال (التعوذ من فتنة المحيا والممات دعاء جامع لمعان كثيرة لا تُحصى، وكذلك التعوذ من المأثم والمغرم) [3]

ثالثاً: مِلاكُ المعنى جملةٌ فى آخر الحديث

(عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ، قال: " ثَلاَثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ مِن ابْنِ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَ لِدُنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِىَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ، وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ فَقَالَ: وَاللَّهِ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلا هو لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا ؛ فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ "، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: " إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً " "آل عمران٧٧") [4] ٠

المناسبة التى جمعت هؤلاء الثلاثة الذين لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذكرها الرسول ﷺ فى آخر الحديث حين قرأ هذه الآية " إِنَّ

(١)فتح الباري ٣/٣٧١ بتصرف
(٢)فيض القدير ٢ / ١٥٢ حديث رقم ١٥٥٦
(٣)شرح ابن بطال لصحيح البخارى١٠ / ١١٧
(٤)رواه البخارى فى كتاب المساقاة باب من منع ابن السبيل من الماء، برقم ٢٣٥٨

الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " [آل عمران٧٧]، فهؤلاء الثلاثة يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً، والجمع بين الثلاثة من تأليف المختلف؛ لأن كل واحد منهم لا ينتقل إليه الذهن ولا يخطر بالبال عند ذكر صاحبيه ؛ لأن الثلاثة من أودية مختلفة متباعدة، والمناسبة التى جمعت الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ذكرها الرسول ﷺ فى آخر الحديث حين قرأ هذه الآية " إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " [آل عمران٧٧] ؛ فالثلاثة يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ٠

أما الرجل الأول الذى كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاءٍ بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ مِن ابْنِ السَّبِيلِ، فهو أخبث الثلاثة ؛ لأنه بمنعه فضل الماء من ابن السبيل يقوده إلى الهلاك عطشا، وإذا قاده إلى الهلاك فكأنما قَتَلَه ولم يَفِ بعهد الله تعالى الذى ذَكَرَ فيه (أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً) [المائدة٣٢]، والرجل الذى منع فضل مائه غير محتاج إلى هذا الماء ؛ لأنه فاضل عنه، كما أنه منعه من السبيل وهو الذى ترق إليه قلوب الناس وتهرع لنجدته ومساعدته، منعه الماء الذى يستبقى به حياته، وليس ثمة مكسب يحصل عليه من هذا المنع، بخلاف صاحبيه اللذين بعده فإن كلا منهما خان وضيع عهده وأمانته وضميره بثمن قليل، ونال عوضا فى مقابل يمينه الكاذبة أو بيعته لإمامه من أجل مآرب شخصية ومنافع دنيوية زائلة ٠ وكيف يمنع ابن السبيل شيئا لم تعمله يداه ؟ وإنما هو هبة الله تعالى للخلق جميعا ؛ ولذا جاء فى رواية أخرى للبخارى " وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ فَيَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ " [(١)]، قال المناوى: " ظاهر قوله آخراً " ما لم تعمل يداك " أن الكلام في المياه المباحة النابعة في موضع لا يختص بأحد ولا صنع للآدميين في انبساطها وإجرائها كماء الأودية والعيون " [(٢)]

وأما الرجل الثانى الذى بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَ لِدُنْيا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِىَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ، فظاهر أنه اشترى بعهد الله ثمنا قليلا ؛ لأن مبايعة الإمام عهدٌ أمر الله تعالى بالوفاء به والصدق فيه؛ فلا تُعْطَى البيعةُ إلا لمن يستحقها دون أدنى غرض من أغراض الدنيا والهوى والمنافع الشخصية ؛ لأن صلاح الأمة رهنٌ بصلاح الراعى الإمام أهل الولاية ٠ هذا الصنف يعنى المنتفعين وأرباب المصالح والمكاسب الذين خانوا أماناتهم وباعوا ضمائرهم مقابل ثمن وصفته الآية بأنه " ثمن قليل " ؛ فهم يفسدون الأمة ويسعون فى خراب

(١)رواه البخارى فى كتاب التوحيد بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ "برقم ٧٤٤٦٠
(٢)فيض القدير ٣/٣٣٠ حديث رقم ٣٥٣٩

البلاد، ولا يعنيهم إلا منافعهم وهذا هو الوباء الذى يهلك الأمم، ووراء هذا أيضا دلالة على فساد الوالى والحاكم الذى تمت البيعة له واعتلى سُدَّةَ الحكم بهذا الكذب والتدليس والتزوير والخيانة مقابل أن يحقق لهؤلاء الكذابين مطامعهم ؛ فهذا هو الثمن القليل وتلك هى الصفقة الخاسرة التى حكم بها البلاد والعباد، ولا عاصم إلا الله ٠ وقوله ﷺ " فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا سَخِطَ " بيان وإيضاح لقوله عن هذا الرجل إنه " بَايَعَ إِمَامًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلاَ لِدُنْيَا " ؛ فرضاه وسخطه متوقفان على ما ينال من ثمن هذه البيعة الكاذبة الخاطئة، وفى الجملة اقتباس ظاهر من قول الله عز وجل (وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) [التوبة٥٨] ٠

والرجل الثالث اشترى بأيمانه ثمنا قليلا ؛ لأنه حلف على سلعته بعد العصر فَقَالَ: " وَاللَّهِ الَّذِى لاَ إِلَهَ إلا هو لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا "، فأقسم بالله جل جلاله، وزاد القسم تأكيدا وتشديدا بأسلوب القصر فقال " الَّذِى لاَ إِلَهَ إلا هو "، ثم ب " قد " التحقيقية فى قوله " لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا "، هذا كله ليروج سلعته وينال بها ثمنا لا تستحقه، وهو ثمن قليل كما ذكرت الآية الكريمة ؛ لأن أى ثمن مهما كان كثيرا فهو فى مقابل الكذب وخسارة الدين ثمن قليل، روج سلعته ليربح مالا فخسر دينه وأمانته وأعطى سلعته التى لا تستحق ما لا تستحق من الثمن فكان كالذى بايع إماما لا يستحق فوسَّدَ إليه ما لا يستحق من الولاية والإمامة ؛ فهما شريكان فى الإفساد، تشابها فى الكذب والتدليس، لا فرق بين من كذب ودلس فوضع الإمامة فى عنق من لا يستحقها، ومن كذب ودلس ليقتطع مال امرىء مسلم، الفساد واحد والجُرْمُ متشابه ؛ ولذا كان الجمع بينهما فى الحديث الشريف فى غاية المناسبة ٠

وخص هذا الوقت " بعد العصر" لاجْتِمَاعِ النَّاسِ، مَعَ الِانْصِرَافِ مِنْ عِبَادَةٍ تُذَكِّرُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَنْهَى عَنْ الْبَاطِلِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ " [العنكبوت٤٥]، ولأنه وقت تعظم فيه المعاصى لنزول الملائكة لرفع أعمال النهار، وإذا حلف كاذبا في ذلك الوقت ختم عمل نهاره بعمل سئ؛ فكان جديرا بالإبعاد والطرد عن رب العباد [١] ٠

(١)ينظرالمنتقى ٣ / ٢٧٦ وفيض القدير ٣/ ٤٣٥

الصورة الرابعة: التناسب بجمع الجوامع

أشهر الخصائص المميِّزة لبلاغة النبى ﷺ " جوامع الكَلِم "، وهى منحةٌ إلهية خَصَّ الله تعالى بها رسولَه ﷺ ؛ فكانت له عَطِيَّةً أُوتِيَها، وهبةً وشرفا وفضيلة لم يُؤْتَها نبيٌّ قبله، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ) [1] ٠

وجوامع الكلم هى العبارات القصيرة التى تجمع المعانى الكثيرة، وهى فى كلامه ﷺ أكثر من أن تحصى، هى من الإيجاز بأعلى المنازل، ومن البلاغة دُرَّةُ عِقْدِها وقلادةُ جِيدِها، تحيط بالمعانى إحاطة السوار بالمعصم، فتجمع فى كل معنى دانيه وقاصيه، وأوله وآخره، وتغوص فيه عن اللؤلؤة التى فى الصدفة، والفكرة التى هى إنسان عين المعنى ولب لبابه، فتطوى الحياة فى كلمات، وتكشف أغوار النفوس وأسرارها فى لمحات، وتجمع أمر الدنيا والآخرة، والمعاش والمعاد، وأبواب الخير والشر، ومسالك الهدى والضلال، هى صفوة الصفوة، ورحيق المعانى أُذِيْبَ فى قطرات ٠

والتناسب فى هذه الجوامع يحلق معها فى آفاقها الرحبة ومعانيها الشاملة، فيضم ما يجمع الدنيا إلى ما يجمع الآخرة، وما يحيط بأصول الفضائل، وما يحفظ كليات الشريعة، وما يجمع شعب الإيمان ٠٠٠

أىُّ خاطرٍ يطيق أن يجمع الإسلام كُلَّهُ فى كلمتين " قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ "، (عَنْ سُفْيَانَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ ٠ قَالَ: " قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ " [2]، الإيمان بالله رأس الأمر وملاك العقيدة، وصلاح النفس، وراحة الرُّوْح، واطمئنان القلب، وانشراح الصدر، والاستقامة ملاك أمر المؤمن وسر سعادته وطوق نجاته، هى فعل المأمورات وترك المنهيات، ولزوم الصراط المستقيم، وعدم الانحراف عنه، ولو رُمْتَ تفصيل هذه الاستقامة لما كفتك أسفارُ علماء الفقه والحديث والتفسير والأخلاق والآداب والفضائل والمحاسن والمساوىء ٠٠ إلخ ٠

قال النووى: " قَالَ الْقَاضِي عِيَاض رَحِمَهُ اللَّه: هَذَا مِنْ جَوَامِع كَلِمه ﷺ ٠وقَالَ الْأُسْتَاذ أَبُو الْقَاسِم الْقُشَيْرِيُّ فِي رِسَالَته: الِاسْتِقَامَة دَرَجَة بِهَا كَمَالُ الْأُمُور وَتَمَامهَا، وَبِوُجُودِهَا حُصُول الْخَيْرَات وَنِظَامهَا، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَقِيمًا فِي حَالَته ضَاعَ سَعْيه وَخَابَ جَهْده

(١)صحيح مسلم كِتَاب المساجد ومواضع الصلاة أول باب منه بدون ترجمة، برقم ٥٢٣

(٢)مسند أحمد حديث سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ ١٢ / ١٦٦ برقم ١٥٣٥٤، وفى مسلم فى كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام برقم ٣٨ بلفظ " قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فاسْتَقِمْ "

• قَالَ:وَقِيلَالِاسْتِقَامَة لَا يُطِيقهَا إِلَّا الْأَكَابِر لِأَنَّهَا الْخُرُوج عَنْ الْمَعْهُودَات وَمُفَارَقَة الرُّسُوم وَالْعَادَات، وَالْقِيَام بَيْن يَدِي اللَّه تَعَالَى عَلَى حَقِيقَة الصِّدْق •

وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: " اِسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا " • وَقَالَ الْوَاسِطِيُّ الْخَصْلَة الَّتِي بِهَا كَمُلَتْ الْمَحَاسِن، وَبِفَقْدِهَا قَبُحَتْ الْمَحَاسِن • وَاَللَّه أَعْلَم " [١] •

وبين الإيمان والاستقامة وجوه من التناسب، منها: أن الإيمان طهارة الباطن والاستقامة طهارة الظاهر، ومنها: أن الإيمان بالقول والاستقامة بالعمل ؛ ولذا جاء فى رواية أخرى " قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ"[٢]، وقال المناوى " هذا من بدائع جوامع الكلم ؛ فقد جمعتا جميع معاني الإيمان والإسلام اعتقادا وقولا وعملا ؛ إذ الإسلام توحيد وهو حاصل بالجملة الأولى،والطاعة بسائر أنواعها في ضمن الثانية "[٣]

والحديث مقتبس من أنوار الذكر الحكيم، قال تعالى " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ " [فصلت٣٠]، " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " [الأحقاف١٣]، قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه " استقاموا فعلاً كما استقاموا قولا"[٤]، وهذا يُعْلِى الوجه الثانى من التناسب، وذكر الزمخشرى أن " ثُمَّ " تدل على تراخى الاستقامة عن الإقرار فى المرتبة وفضلها عليه ؛ لأن الاستقامة لها الشأن كله [٥]، وهذا يعنى أن " ثُمَّ " للتراخى الرُّتْبى لا الزمنى، ففيه إعلاء لشأن الاستقامة، ولا تصلح للتراخى الزمنى لأن الأصل فى المؤمن أن لا يتراخى عن الاستقامة طرفة عين ولا يخلو عن الاتصاف بها فى العمر كله، والتراخى الزمنى يجعل هناك فاصلا زمنيا ما بين قوله " ربى الله " والاستقامة، وفى هذا تراخٍ وتقصير لا يناسبان حال المؤمنين الذين تتنزل عليهم الملائكة تبشرهم أن لا يخافوا ولا يحزنوا، وتبشرهم بالجنة ؛ ولذا جاء العطف بالفاء فى رواية مسلم " قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فاسْتَقِمْ " •

ومن الجوامع حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ

(١)شرح النووي على مسلم ٩/٢
(٢)مسند أحمد حديث سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ ٣٠ / ٤٤٠ برقم ١٤٨٧٢•
(٣)فيض القدير ٤ / ٥٢٣ حديث رقم ٦١٤٣
(٤)الكشاف للزمخشرى ٥/ ٣٨١
(٥)السابق

الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ") [1] .

المناسبة الجامعة بين هذه الخمس أنها فضائل أعطاها الله جل وعلا لرسوله ﷺ وميزه بها عن جميع الأنبياء والرسل، منها ما هو فى الدنيا وهى الفضائل الأربع الأولى، ومنها ما هو فى الآخرة وهى الشفاعة، أما الفضائل التى فى الدنيا فهى عموم رسالته ﷺ فإنه بُعِثَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وهناك دعائم تحمى رسالته ﷺ وهى له خاصة وليست لنبى قبله، نص الحديث على هذا بقوله (نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ) وقوله (وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ) وفى رواية أخرى للبخارى من حديث جابر أيضا " وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي " [2]، ولم يذكر الحديث من أركان الإسلام إلا الصلاة فى قوله ﷺ (وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ) ؛ لأن هذا المعنى من خصائص أمة محمد ﷺ .

وعند مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ) [3]، والرواية لا تخرج عن المناسبة المذكورة ؛ لأن جوامع الكلم تندرج ضمن ما فُضِّلَ به ﷺ على الأنبياء فى الدنيا، وكذا ختم النبوة به ﷺ.

ومن التناسب بجمع الجوامع تلك الأحاديث الشريفة التى قامت على حفظ الكليات الخمس، وهى حفظ النفس والدين والعقل والعرض والمال، وقد اجتمعت الخمس فى حديثأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ ". قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: " الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ " [4] .

هذه الموبقات السبع – أى المُهْلكات – هدمت الكليات الخمس، فالشرك بالله تعالى هدمٌ للدين، والسحر هدمٌ لحرمة العقل لأنه تضليلٌ للعقل الذى هو مناط التكليف،

(١)متفق عليه واللفظ للبخارى فى كِتَاب الصَّلَاةِبَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، برقم ٤٣٨

(٢)رواه البخارى فى كتاب التيمم وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى "فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا "،برقم ٣٢٣

(٣)صحيح مسلم كِتَاب المساجد ومواضع الصلاة أول باب منه بدون ترجمة، برقم ٥٢٣

(٤)متفق عليه واللفظ للبخارى فى كتاب الوصايا بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا "، برقم ٢٧٦٦

وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق هدمٌ لحرمة النفس، وأكل الربا وأكل مال اليتيم هدمٌ لحرمة المال، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات هتكٌ لحرمة العرض، وحفظ الدين والعقل والنفس والمال والعرض هى الكليات الخمس التى أمر الشرع بحفظها، وهذا وجه التناسب فى الجمع بينها، وقيام هذه الموبقات كلها على الظُّلم وجهٌ آخر .

وبين كل مُوبِقة ومُوبِقة وجهٌ من التناسب أو أكثر:

فبين الشرك بالله والسحر رباطٌ جامع، ففى كل منهما قلبٌ للحقائق، والشرك بالله تعالى أكبر جرائم قلب الحقائق ؛ لأنه قلب لأكبر حقيقة وهى الوحدانية التى هى عماد كل الشرائع وما من ناطق فى هذا الكون ولا صامت إلا وهو شاهدٌ لله جل جلاله بالوحدانية، والسحر قلب لحقائق الأشياء فى عين الرائى بطريق التمويه والتدليس، وبينهما وجهٌ آخر ذكره النووى وهو " أن السحر قَدْ يَكُون كُفْرًا، إِنْ كَانَ فِيهِ قَوْل أَوْ فِعْل يَقْتَضِي الْكُفْر،وَقَالَ مَالِك:السَّاحِر كَافِر يُقْتَل بِالسِّحْرِ،وَلَا يُسْتَتَاب،وَلَا تُقْبَل تَوْبَته"(١) .

وبين السحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق طباقٌ خفىّ ؛ لأن الساحر إن كَفَرَ بسحره فإنه يُقْتَلُ بحق، ومن قتل نفسا حرم الله قتلها فقد قتلها بغير حق، وبين قتلها بحق وقتلها بغير حق تضاد .

وبين قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم أن كلا منهما فيه إفسادٌ فى الأرض، ولما كان المال شقيق الرُّوْح وكان قتل النفس إذهاقا للرُّوْح حَسُنَ قِرانُهما، وثمة وجه آخر وهو أن كلا من القتل والمال له صورتان، فالقتل قد يكون بحق وقد يكون بغير حق، وأكل المال قد يكون حلالا – إذا لم يكن فيه ظلم – وقد يكون حراما إذا كان فيه ظلمٌ كأكل الربا وأكل مال اليتيم وهما أبشع صور أكل المال ظلما .

وبين أكل الربا وأكل مال اليتيم تناسبٌ ظاهر فكلاهما إفسادٌ فى المال، والتعبير بالأكل فيهما من شريف النظم الذى يؤلف بينهما ؛ إذ المراد النهى عن تناول الربا وتناول مال اليتيم وإنفاقه فى غير وجهه، وعبر بالأكل فيهما زيادة فى التشنيع، وبين أكل الربا وأكل مال اليتيم طباق خفىّ ؛ لأن الربا زيادةٌ محرمة فى المال، وأكل مال اليتيم يؤدى إلى نَقْصِ مالِه أو ذَهَابِه جُمْلَةً، وبين الزيادة والنقص تضاد .

وبين أكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف تناسب فأكل مال اليتيم ظلمٌ لليتيم وهو ضعيف لا قوة له يدفع بها عن نفسه ويذود بها عن حقه، فيستأسد الوصى على هذا اليتيم الضعيف ويستطيل عليه بقوته ويجلب عليه بخيله ورَجِلِه، والتولى يوم الزحف ضعفٌ وجبنٌ وخور عند لقاء العدو، فالجمع بينهما يُذَكِّرُ بقول عِمْران ابن حِطَّان فى بيته السائر يخاطب الحَجَّاج:

(١)شرح النووي على مسلم ٧ / ٣٢٨ بتصرف

أَسَدٌ عَلَيَّ وفى الحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

فالأول شجاعٌ وأسدٌ هصور على اليتيم الضعيف، والثانى جبانٌ ضعيفٌ يفر يوم الزحف، وبينهما تضاد ٠

وبين التولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات تناسب ؛ لأن الأول تولى يوم الزحف وهو اليوم الذى يكون فيه قذف العدو وقتله، والثانى قذف المحصنات الغافلات المؤمنات أى رماهن بالزنا، فشبه الرسول ﷺ الرمى بالزنا بالقذف لأنه يؤثر فيهن أثر القذيفة والسهام، فالأول قذفٌ مُرَغَّبٌ فيه بل الجنة قريبة منه دانية من هذا القاذف المجاهد فى سبيل الله تعالى، والثانى قذفٌ منهيٌّ عنه لأنه خوض فى أعراض العفيفات البريئات المؤمنات، والتعبير عن رميهن بالفاحشة بلفظ القذف مناسب جدا للتعبير فى الأول ب " يوم الزحف " لأن الزحف والقذف من واد واحد ومما يكون عند لقاء العدو

وثمة أحاديث شريفة تُذْكَرُ فيها الجامع فيها حفظُ بعض الكليات الخمس كما فى حديثعَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ – ﷺ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ " (١) ٠

الجامع بين هذه الثلاثة التى لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحداها أن كلا منها يهدر إحدى الكليات الخمس التى أمر الإسلام بالحفاظ عليها، فالثيب الزانى أهدر حرمة العرض، ومن قتل نفسا بغير نفس أهدر حرمة النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق، والمرتد التارك لدينه المفارق للجماعة أهدر حرمة الدِّين، وحفظ النفس والدين والعرض من الكليات الخمس التى أمر الإسلام بالحفاظ عليها ٠

والزنا وقتل النفس بينهما مناسبة سوغت قرانهما لأن كلا منهما عدوان على الغير، فالثيب الزانى هتك عرض المرأة، ومن قتل نفسا بغير نفس اعتدى على هذه النفس التى حرمها الله تعالى، أما التارك لدينه فهو معتدٍ على نفسه هو لأنه رَدَّها إلى الكفر وأركسها فيه بعد أن أنقذها الله منه ٠

ولا شك فى أن اقتران الزنا والردة بقتل النفس دالٌّ على أنهما لا يقلان فى الجُرْم البشع عن قتل النفس؛ لأن الزنا إهدارٌ لعفة المرأة، وإهدارُ عفتها كإهدار نفسها، فهو تحطيمٌ لآدميتها وحريتها وعفافها، والزنا والقتل عدوان على الجسد، وتلك مناسبة أخرى لاقترانهما، أما الردة فعدوان على الرُّوْح التى طهرها الله تعالى من دنس الشرك وهداها إلى نور الإيمان،

(١)متفق عليه واللفظ لمسلم فى كتاب القسامة بَاب مَا يُبَاحُ بِهِ دَمُ الْمُسْلِمِ، برقم ١٦٧٦ ٠ والثيب: من تزوج وحصل له الوطء، يقال للأنثى وللذكر، وهو من ثاب يثوب كأنه مَن صلح لعود الوطء، وقيل: لأنها ترجع بغير الوجه الذي كانت عليه من الحياء " مقدمة فتح البارى، فصل: ث ى ب

والمرتد يُخْرِجُ هذه الرُّوْح الطاهرة ويَزْكِسُها فى دنس الكفر والضلال ؛ فهو معتدٍ على نفسه اعتداء يشبه القتل، وكأنه قتل نفسه بترك دينه ؛ لأنه لا قيمة له بعد الإيمان، فإذا خلع ربقة الإسلام من عنقه فكأنه نزع روحه من جسده ؛ فوجب قتله لأنه قتل نفسه حين أخرجها من النور إلى الظلمات ٠ ويلاحظ أن ترك الدين هو الموجب للقتل لقوله ﷺ فى حديث ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ " [١]، وذكر مفارقته للجماعة لمزيد التبشيع لفَعْلته والتشنيع عليه بأنه حين ترك دينه ارتكب جريمة أخرى وهى مفارقة الجماعة التى كان ينتسب إليها وتنتسب إليه ويلوذ بها وتلوذ به، فلما ترك دينه كأنه تخاذل عن هذه الجماعة وخذلها وسَلَّ نفسه منها وألغى انتسابه إليها وأهدر قيمة مهمة من قيم الدين وهى الجماعة، فكأن عضوا من جسدها قد بُتِر منها ؛ لأن المسلمين كالجسد الواحد ٠ وفى لفظ البخارى " وَالْمَارِقُ مِنْ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ " [٢]، وفى التعبير فيها ب " المارق " تشبيه له بالسهم حين يمرق من الرَّمِيَّة أى يخترقها وينفذ من جسدها، فكأن المرتد خَرَقَ حاجزَ الدِّين وحِمَاه، وطَعَنَ الدِّينَ فأَنْفَذَ فيه الطعنة، كأنه قتل الدين فى نفسه ورام أن يزعزعه فى نفوس المسلمين ٠

ومن شريف النظم فى الحديث مجيء الصفة المفَسِّرة فى أوله وآخره، فقوله فى آخره " الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ" صِفَة مُفَسِّرَة لِلتَّارِكِ لدينه لَا صِفَة مُسْتَقِلَّة وَإِلَّا لَكَانَتْ الْخِصَال أَرْبَعًا، وَهُوَ كَقَوْلِهِ فى أول الحديث " مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ "، فجملة " يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ" صِفَة مُفَسِّرَة لِقَوْلِهِ " مُسْلِمٍ " وَلَيْسَتْ قَيْدًا فِيهِ ؛ إِذْ لَا يَكُون مُسْلِمًا إِلَّا بِذَلِكَ [٣] ٠

(١)البخاري كتاب الجهاد والسير بَاب لَا يُعَذَّبُ بِعَذَابِ اللَّهِ، برقم ٣٠١٧
(٢)البخارى فى كتاب الديات باب قول الله تعالى أن النفس بالنفس والعين بالعين، برقم ٦٨٧٨
(٣)ينظر فتح الباري ١٢/ ٢٠١، ٢٠٢

الصورة الخامسة: التناسب بشَرِيفِ النَّظْم

هذه الصورة من التناسب أعمُّ الصور ؛ لأنه ما من حديث شريف إلا وهو قائمٌ على " شَرِيفِ النَّظْم " الذى يؤلِّفُ مبانيَه ويُحْكِمُ عَقْدَها ويَشُدُّ أَسْرَها .

و" شَرِيفِ النَّظْم " كلمة جليلة من مبتكرات الباقلانى وودائعه السخية التى استودعها كتابه الفذ " إعجاز القرآن "، وجعل لها فى تأليف المؤتلف وتأليف المختلف نصيبا موفورا، مع أنه لم يفصل مراده ب " شَرِيفِ النَّظْم " تفصيلا، وفحوى كلامه أنه أراد به خصائص النظم ولطائفه ومستودعات أسراره التى يُقَوِّى بعضُها بعضا من التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والذكر والإظهار والإضمار والقصر والفصل والوصل والخبر والإنشاء والإيجاز والإطناب وفنون التشبيه والمجاز والكناية وصور البديع وأفنانه، هى كلمة شريفة تشمل البلاغة كلها . وهذا مستفاد من حديث الباقلانى حول آية " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ " [الشورى٥٢] ذكر أن كل جملة من الآية على انفرادها تامة تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، وهذا من إيجازها البليغ، ثم ذكر أن الله تعالى سمى القرآن رُوْحاً لأنه يحيى الخلق فله فضل الأرواح فى الأجساد، ثم سماه نورا لأنه يضىء ضياء الشمس فى الآفاق، وهذا من التدقيق فى اختيار الكلمة التى لا يسد غيرُها مَسَدَّها، ثم ذكر الباقلانى أن الله أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته فى قوله تعالى " نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا " يعنى إسناد الهداية إلى الله جل جلاله فى الفعل " نهدى " [(١)] . وفى آية " فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ " [الأنعام٩٦] ذكر أن كل جملة من الآية على انفرادها تامة تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة، ثم ذكر أن الآية شملت الطباق المليح، والإيجاز اللطيف، والتعديل، والتمثيل، والتقريب، والتشكيل، وأكثر من ذلك [(٢)] .

ولاشك فى أن استقصاء الخصائص البلاغية التى هى " شَرِيفِ النَّظْم " فى الحديث الشريف من التكليف بما يفوق طوق الدارس، أىِّ دارس ؛ لذا كان لزاما الاكتفاء بشواهد تكشف سخاء هذا النظم الشريف فى الحديث الشريف على قدر الطاقة، فمن التناسب ب " شَرِيفِ النَّظْم ":

أولا: الإجمال والتفصيل:

١- (عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ

(١)ينظر إعجاز القرآن للباقلانى ٢٨٤، ٢٨٥

(٢)ينظر السابق ٢٨٦

وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ،وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) (١)

قام الحديث على الإجمال والتفصيل، فبدأ بالأمر الكُلِّىّ المُجْمَل والقاعدة الأم " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ " وهو الأصل الذى يتحكم فى كل حركات العبد وأفعاله وأقواله وسلوكه، وفى أخذه وتركه، وإعطائه ومنعه، وكلامه وسكوته، فالنية هى الأصل الذى تقاس به الأعمال ؛ ولذا كانت هذه الجملة فى غاية الإيجاز ؛ لأنها جمعت كل ما يصدر عن العبد فى كلمة واحدة " الأعمال "، وجمعت الأصل الذى توزن به وينبنى عليه الثواب والعقاب فى كلمة واحدة " بالنية " .

ثم تدرج الحديث من هذا الإجمال العام الذى أَصَّلَ القاعدة الكلية إلى التفصيل الخاص بالمرء فى قوله " وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى "، وهذه الجملة – وإن كان فيها شىء من التفصيل للجملة الأولى لأنها عُنِيَت بالتطبيق على الفرد بعدما عُنِيَت الأولى بالقاعدة العامة – هى الأخرى قائمة على الإجمال والإيجاز ؛ لأنها تعنى أن كل إنسان ليس له من الثواب أو العقاب على عمله إلا على قدر نيته، ثم جاءت الجملتان المتعاطفتان " فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ ... وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ ... تفصيلا لهذا الإجمال بضرب المثل بعمل من الأعمال وهو " الهجرة " وكيف يتحدد أجرها وقيمتها بنية المهاجر، فتكون هذه النية هى التى ترفع الهجرة إلى أعلى عليين حين ينوى بها المهاجر أن تكون لله ورسوله، أو تنزل بها عن هذه الغاية وتنحدر انحدارا حين تكون من أجل عَرَض دنيوى زائل " إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا " ؛ وبهذا نرى الإجمال والتفصيل هو الرابط الناظم لجمل الحديث ومعانيه، وهذا الرباط أحكم المعانى وعَرَضَها فى صورة مشوقة تلفت الانتباه وتغرى على المتابعة والترقب والإنصات ؛ لأن جملة " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ " أصلٌ كبير شامخ، فتتوق النفوس إلى تفصيله وبسطه ومَدِّ ميدانه، ثم يأتى التفصيل مغلفا بالإجمال أيضا فى قوله " وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى " التى خصصت عموم الأولى تخصيصا ما، ولكن يبقى فى النفوس توقُها وشوقُها وتطلُّعُها إلى مزيد من التفصيل الكاشف، فيضرب الحديث الشريف مثالا توضيحيا شارحا بالهجرة، وبالمثال يتضح المقال، وبهذا المثال تتضح القاعدة وتستقر وتتمكن فى النفوس ؛ وهذا أصلٌ كبير من أصول العلم ينبغى إحكامه، فلولا تفريع الفروع وضرب الأمثلة لبقيت أصول العلم عامة مبهمة .

والهجرة التى ضربها الرسول ﷺ مثلا حدثٌ جَلَلٌ فى تاريخ الإسلام، وأجرها عظيم ؛ ولذلك أثنى عليها الذكر الحكيم فى مواضع كثيرة ؛ ويقاس على الهجرة غيرها من أمور العبادات والمعاملات وجميع الأعمال التى تصدر عن الإنسان .

---

(١)متفق عليه واللفظ للبخارى فى كتاب الإمارة بَاب النِّيَّةِ فِي الْأَيْمَانِ، برقم ٦٦٨٩

ومن شريف النظم الذى أَلَّفَ جمل الحديث أن قوله:

" إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ "

وقوله: " وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى "

أخوان ؛ لبناء كل منهما على أسلوب القصر ب " إنما " التى تستعمل فى الأمور المعلومة التى لا يجهلها المخاطب، واتحاد الجملتين فى قيام كل منهما على الإيجاز بنوعيه: إيجاز القِصَر = لجمعهما المعانى الكثيرة فى ألفاظ يسيرة، فهذا الحديث من جوامع الكلم، قالوا: " لَيْسَ فِي أَخْبَار النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْء أَجْمَع وَأَغْنَى وَأَكْثَر فَائِدَة مِنْ هَذَا الْحَدِيث "، وذكروا أنه يَدْخُل فِي ثَلَاثِينَ بَابًا مِنْ الْعِلْم، وَقَالَ الشَّافِعِيّ: يَدْخُل فِي سَبْعِينَ بَابًا، وَيُحْتَمَل أَنْ يُرِيد بِهَذَا الْعَدَد الْمُبَالَغَة . وَقَالَ عَبْد الرَّحْمَن بْن مَهْدِيّ أَيْضًا: يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَل هَذَا الْحَدِيث رَأْس كُلّ بَاب = وإيجاز الحذف ؛ إذ التقدير: إنما تَصِحّ الأعمال أو تَحْصُل أو تَسْتَقِرّ بالنية [1]، أو يكون التقدير: إنما أجر الأعمال بالنية، وإنما لامرىء أجر ما نوى ؛ وبهذا تتشاكل المعانى والمبانى فى هاتين الجملتين .

وقوله: " فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ "

وقوله: " وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ "

أخوان ؛ لبناء كل منهما على أسلوب الشرط الدال على تحديد كل من القسمين تحديدا باتّاً، وجاءت جملة جواب الشرط فى جانب الصنف الأول هى نفس جملة فعل الشرط وكأنها تكرار لها للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل، وأن الجزاء موكَّلٌ بالنية وعلى قدرها، وفى قوله "فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ " تشريف وتفخيم لثواب هذا الصنف، وضده قوله فى الصنف الثانى " فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " ففيه تحقير ووضعٌ لهذا الصنف بالإعراض عن التصريح بما هاجر إليه، فلم يقل: فهِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، بل استخدم اسم الموصول " ما " وصلته " هاجر إليه " إعراضا عن ذكره واستسقاطا لأمره ؛ لأنه لا يستحق الذكر لسقوط هجرته حين جعلها من أجل الدنيا والمرأة فأفسدها وأحبط ثوابها، وقال ابن حجر: " يُحْتَمَل أَنْ يَكُون ذَكَرَهُ بِالضَّمِيرِ لِيَتَنَاوَل مَا ذُكِرَ مِنْ الْمَرْأَة وَغَيْرهَا، وَإِنَّمَا أَبْرَزَ الضَّمِير فِي الْجُمْلَة الَّتِي قَبْلهَا وَهِيَ الْمَخْذُوفَة لِقَصْدِ الِالْتِذَاذ بِذِكْرِ اللَّه وَرَسُوله وَعِظَم شَأْنهمَا، بِخِلَافِ الدُّنْيَا وَالْمَرْأَة فَإِنَّ السِّيَاق يُشْعِر بِالْحَثِّ عَلَى الْإِعْرَاض عَنْهُمَا " [2] .

(١)ينظر فتح الباري ١ / ١١٠

(٢)السابق

واتحاد الجملتين فى التركيب وفى وضع أغلب الكلمات فى فعل الشرط فى الجملة الثانية بإزاء أخواتها فى فعل الشرط من الجملة الأولى كالعَصَب الذى يمسك الكلام كما يمسك العَصَب الجسد ويشده شدا: اتحاد فى أداة الشرط " مَن " وفى فعل الشرط " كانت " وفى فاعله " هِجْرَتُهُ "، ثم تختلف الكلمة الدالة على الغرض من الهجرة والنية التى وراءها، ففى الأولى " إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ " وهذا أشرف القصد وأشرف النية وأعلى المنازل، وفى الجملة الثانية " إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا " نية فاسدة أفسدت الهجرة التى هى من أبر الأعمال وأحبها وأرجاها عند المليك جل جلاله، وجَعْلُ الدنيا مقابلة للمقصد الأول وهو " الله ورسوله " زاد هذا الصنف الثانى شناعة وهُجْنَة، فأىُّ شىءٍ هذا الذى يستحق أن يوضع فى كفة ليكون عِدْلاً لله ورسوله ؟ وتنكير " دنيا " يفيد التحقير، أى دنيا حقيرة زائلة ٠ ووُضِعَت الدنيا موضع ما يقصد إليه من زينتها كالمال والبنين ونحوهما للدلالة على عظيم الطمع والجشع والشراهة التى تسكن قلوب هذا الصنف الذى كأنه يريد الدنيا ولا يقنع بشىء منها دون شىء، ويُقَوِّى هذا المعنى قولُه بعده " يُصِيبُهَا " أى ينالها ويحصل عليها ويجمع حطامها، والتعبير بالإصابة فيه لمح إلى أصل دلالتها وهو الجرح ونحوه، أى أن هذا الصنف كأنه يقتطع من جسد الدنيا اقتطاعا ويطعنها ليصيب منها ما يصيب ويَهْدِب من ثمرتها ما يَهْدِب، أما الصنف الأول فلم يعبر الحديث معه بما يقابل هذا اللفظ إشارة إلى أنه عبر الدنيا كعابر سبيل لم يجرحها ولم يصبها، بل كانت منه سالمة بارئة وكان منها سالما بارئا، وحسبُه أنه نال شرف السلامة منها ونالت شرف السلامة منه، وحسبُه أنه أخلص قصده " إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ "، وهذا كاف جدا، وليس فوقه شىء ٠

وقوله " أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا " من عطف الخاص على العام اهتماما بأمر الخاص ؛ لأنه داخل ضمن قوله " إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا " وَنُكْتَة الِاهْتِمَام الزِّيَادَة فِي التَّحْذِير ؛ لِأَنَّ الِافْتِتَان بِهَا أَشَدّ، وفى تخصيصها لمح آخر إلى مناسبة الحديث ؛ وهو أن رجلا خَطَبَ اِمْرَأَة يُقَال لَهَا أُمّ قَيْس فَأَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجهُ حَتَّى يُهَاجِر فَهَاجَرَ فَتَزَوَّجَهَا، فكان يُسَمَّى " مُهَاجِر أُمّ قَيْس " [(١)] ٠

وفى هاتين الجملتين حُسْنُ التقسيم الذى استوفى المعنى استيفاء ولم يترك فيه زيادة لمستزيد، وفيه حسن إظهار المعنى بعرضه فى أسلوب المقابلة بين من هاجر إلى الله ورسوله ومن هاجر من أجل الدنيا أو المرأة، وهذه كلها وشائج وروابط من شريف النظم تزيد الحديث تماسكا وتناسبا وتراحما ٠

٢- (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " ٠

(١)ينظر فتح الباري ١ / ١٠٠

قَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَسَمِعْتُ هَؤُلَاءِ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَحْسِبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ؛ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ")(١)

الحديث كله تفصيل لما أُجْمِلَ فى الجملة الأولى وهى " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " فهى الممسكة بذمام المعنى فى الحديث كله، والحديث بعدها صور للمسئولية التى يرعاها كل راعٍ، لا فرق بين الإمامِ الذى هو رأسُ الدولة والخادمِ الذى استأمنه سيده على ماله فهو يقومُ عليه ويعمل فيه، فكلٌّ مسئول عما استرعى، والمقياس واحد، وهو حسن القيام على ما وُكِلَ إليه من العمل وإصلاحه والنهوض به، وقد يبلغ الخادم فى ذلك ما لا يبلغ الإمام الوالى وهو فى أرفع منصب وأعلى درجة فى قيادة الأمة ؛ وكذا الرجل فى رعايته لأهله والمرأة فى رعايتها لبيت زوجها قد يبلغ كلٌ منهما ما لا يبلغه الحاكم رئيس الدولة وزعيم الأمة، ومن الكلام الذى له نفاذ وقوة وبصيرة فى هذا المعنى قول الإمام على – رضى الله عنه – " قِيمةُ كُلِّ امرىءٍ ما يُحْسِن " ٠

والترتيب فى الحديث راعى عظم التبعة والمسئولية ؛ فبدأ بالإمام لأن مسؤليته أعظم وعبئه أكبر والأمانة التى حُمِّلَها أثقلُ وأخطر ؛ فإن صلاح كثير من أحوال الأمة أو فسادها رَهْنُ صلاحِه أو فساده، وتقديمه هنا لأنه رأس الأمة والقاطرة التى تقود العباد والبلاد ؛ ولذا قدمه المصطفى ﷺ فى حديث السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله إذا كان إماما عادلا، ولم يذكر الحديث بعد الإمام وزراءه وأهل الحل والعقد فى مفاصل البلاد وشئونها لأن تبعتهم كتبعته وحملهم كحملة، كلٌ منهم إمامٌ فى موقعه وما عُهِدَ إليه من رعاية شئون البلاد والعباد ٠

وأردف مسئولية الإمام بمسئولية الرجل فى أهله ؛ لأن الرجل فى أهله كالإمام فى رعيته، فهو أعلى مسئول فى نطاق الأسرة، ومسئوليته فى أسرته أخت مسئولية الحاكم فى رعيته وقرينتُها ورِدْفُها ؛ وقدمه على المرأة لأنه هو القيِّم عليها لقوله تعالى " الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ " [النساء٣٤]، ولم يكتف فى المسئولية الأسرية بالرجل بل جعل المرأة مسئولة معه لأن لها دورا فى الأسرة خاصا بها لاينهض به الرجل، دور تربية الأولاد ورعايتهم وإصلاحهم وتهذيبهم والقيام بشئون البيت، وكذا الابن فى مال أبيه والخادم فى مال سيده كلاهما راع ومسئول عن رعيته ٠ ولم يقل والابن فى مال أبيه، بل عبر عنه بالرجل ليستحضر صفة الرجولة وأنه صار مسئولا كأبيه ؛ لأنه صار رجلا كأبيه، وأنه لم يعد الابن المدلَّل الذى يعوله أبوه، وإذا كان مسئولا عن مال

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري فى كتاب الاستقراض باب العبد راع فى مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه برقم ٢٤٠٩ ٠

أبيه الذى قد يتسامح معه فيما أنفق وتَصَرَّفَ لعاطفة الأبوة الرحيمة الحانية، فسؤاله عما استرعى من غير مال أبيه الذى لا يتسامح معه فى نقير ولا قطمير من باب أولى ٠

الحديث أعطى مثلا للمسئولية الفردية، وهى مسئولية الحاكم عن رعيته، ويدخل فيها مسئولية كل من ولاه الله تعالى شأنا من شئون البلاد والعباد، كما أعطى مثلا للمسئولية المشتركة وهى المسئولية فى نطاق الأسرة: يشترك فيها الرجل والمرأة والابن والخادم، كلٌّ على قدر دروه وتبعته، وكلُّ ذلك تفصيل لقوله ﷺ فى صدر الحديث: " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ "، والتفصيل بعد الإجمال من ألوان الإطناب، ومع ذلك فالحديث فى غاية الإيجاز لأنه جمع المسئولية فى صورتيها: الفردية والمشتركة، كما جمع المسئولية فى أعلى صورها وهى مسئولية الإمام وفى أقل صورها وهى مسئولية الخادم ٠

وختام الحديث بقوله ﷺ " فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" رد لعجز الكلام على صدره ؛ لأنها هى نفس الجملة التى بدأ الحديث بها ؛ فهى الصوت الأول والصوت الأخير ؛ حتى يبقى ذلك ثابتا راسخا فى نفوس الأمة وضمائرها لأن مقياس صلاحها وسدادها ونهضتها أن يقوم كل فرد بدوره على أكمل وجه وأن يستحضر فى نفسه دائما أنه راعٍ وأنه مسئول عن رعيته ٠

ومن شريف النظم الذى ألف جمل الحديث وربط مفاصله وأجزاءه الابتداء بالشخص المنوط به المسئولية:

(الإمام – الرجل – المرأة – الخادم – الرجل)

= ثم اتحاد الخبر للمبتدءات الخمسة السابقة أى الإخبار عنهم جميعا بكلمة " راع " التى تجعل الجميع سواء فى تحمل المسئولية، فكل منهم راع ٠

= ثم اشتراكهم جميعا فى التقييد بهذه الجملة الحالية " وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " فلا استثناءات فى مساءلة كُلٍّ عما استرعى: حفظ أم ضيع، أحسن أم أساء، أصلح أم أفسد، وَفَّى أم قَصَّر

هذا النظم الشريف ألف الكلام وزاده تناسبا وتماسكا وتشابكا، وجعل بعضه آخذا بحُجَزِ بعض ؛ لأن كل جملة صارت شبيهة بأختها فى النظم، كما أن كل واحد من هؤلاء شبيه بالآخر فى تحمل المسئولية والمساءلة عليها، فلا أحد فوق المساءلة ولو كان الإمام الحاكم القائم على رأس الأمة، بل هو أول المسئولين والمحاسَبين ٠

وتقديم الخبر " راع " على الجار والمجرور المتعلق به فى قوله فى جانب الإمام:

" فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ "

يدل على عموم مسئولية الإمام، فهى مسئولية عامة عن الصغير والكبير، والأبيض والأسود، والغنى والفقير، والقوى والضعيف، عن الأرملة التى مات زوجها، واليتيم الذى لا عائل له، والمسكين الذى لا يجد ما يكفيه، والشيخ الفانى الذى جار عليه الزمن فى شيخوخته، وغيرهم، ومن نوابغ الكلم فى هذا قول الفاروق عمر – رضى الله عنه – " لو عثرت دابة بالعراق لسُئِلْتُ عنها: لِمَ لَمْ تُعَبِّدْ لها الطريقَ يا عُمر ؟ "، ولو قيل: الإمام فى رعيته راع ومسئول عن رعيته، لكان فيه تكرار ينبو عنه كلامُه ﷺ .

وتقديم الجار والمجرور على الخبر فى قوله:

وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ

وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ

وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ

وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ

يدل على أن مسئولية كل واحد من هؤلاء مسئولية خاصة وليست مسئولية عامة كمسئولية الإمام .

وللبيضاوى كلمة جمعت ذلك وأربت عليه، قال " عمم أولا ثم خصص ثانيا، وقسم الخصوصية إلى جهة الرجل وجهة المرأة وجهة الخادم وجهة النسب، ثم عم آخرا تأكيدا لبيان الحكم أولا وآخرا، وفيه رد العجز على الصدر . وقال الطيبى: كلكم راع تشبيه مضمر الأداة، أى كلكم مثل الراعى، وكلكم مسئول عن رعيته، وفيه معنى التشبيه، ووجه التشبيه: حفظ الشىء وحسن التعهد، وأفاد أن الراعى غير مطلوب لذاته، بل أقيم لحفظ ما استرعاه "[1] .

ثانياً: التكرار:

١– قال عمرو بن العاص – رضى الله عنه – يقص خبر إسلامه: (لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: " مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟! قَالَ قُلْتُ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قَالَ: " تَشْتَرِطُ بِمَاذَا ؟" قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي، قَالَ: " أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ "[2] .

(١)فيض القدير ٥/ ٣٨ بتصرف، حديث رقم ٦٣٧٠

(٢)صحيح مسلم كتاب الإيمان بَاب كَوْنِ الْإِسْلَامِ يَهْدِمُ مَا قَبْلَهُ وَكَذَا الْهِجْرَةِ وَالْحَجِّ، برقم ١٢١

تكرار قوله " يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ " يؤلف بين جمل الحديث ويزيدها تماسكا وتشابكا، والجامع بين الإسلام والهجرة والحج مذكور صراحة فى نص الحديث، وهو أن كلا منها " يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ " أى يسقطه ويمحوه، والهجرة التى توسطت الثلاثة متحققة فى الثلاثة: فالإسلام هجرة من الكفر، والهجرة من مكة إلى المدينة هجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، والحج هجرة إلى الله تعالى، يفارق الحاج فيها أهله وولده وقومه ووطنه لأداء تلك الفريضة، قال المناوى " تكرير يهدم فى كل من الخصال دلالة على استقلال كل منها بالهدم، ولفظ " يهدم " قرينة الاستعارة المكنية، شبه الخصال الثلاث فى قلعها الذنوب من محلها بما يهدم البناء من أصله، ثم أثبت للإسلام ما يلائم المشبه به من الهدم " [1] .

وفى شعائر الإسلام أمور أخرى تهدم ما كان قبلها من الذنوب، كالصلاة إلى الصلاة، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة، والاقتصار فى الحديث على ما ذكر مناسب للمقام الذى يعلن فيه عمرو بن العاص – رضى الله عنه – إسلامه بين يدى الرسول ﷺ، فناسبه ذكر أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد جاء عمرو مهاجرا إلى المدينة فناسبه ذكر أن الهجرة تهدم ما كان قبلها، فالإسلام والهجرة تحققا وثبتا له رضى الله عنه، وفى ذكر الحج ترغيب فى أداء تلك الفريضة العظيمة .

٢– (عن أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: " غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا – يَعْنِي الْخِمَارَ – خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ") [2] .

تكرار قوله " خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا " رباط يوثق عُرى الحديث الشريف ويجعل بعضه بسبب من بعض، ويؤكد المعنى ويزيده قوة ؛ لأنه يتناول أمورا كل أمر منها خير من الدنيا وما فيها ؛ لينزع حب الدنيا والتنافس عليها من قلوب المؤمنين ؛ ويرغبهم فى العمل الصالح وإن كان قليلا ؛ لأنه على قلته سيكون ثوابه فى الآخرة خيرا من الدنيا وما فيها ؛ لأن ثواب الآخرة أعظم وأبقى وأدوم . ووقوع الجملة المكررة خبرا فى المرات الثلاث عروة ثانية، وتنكير " غَدْوَةٌ – رَوْحَةٌ – خَيْرٌ – قَدَمٍ – امْرَأَةً " الدال على الإفراد عروة ثالثة، واتحاد العطف ب " أو " فى الجملتين الأولى والثانية فى قوله " غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ

(١)فيض القدير ٢/ ١٦٧ بتصرف حديث رقم ١٥٩٧

(٢)رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار، برقم ٦٥٦٨

رَوْحَةٌ – وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنْ الْجَنَّةِ"عروة رابعة، وهذه كلها عرى لفظية ظاهرة فى بناء الحديث ٠

ذكر الحديث أشياء قليلة وحكم بأنها " خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا " وهذا معنى يجمع الحديث كله، والإفراد فى صيغ الألفاظ " غَدْوَةٌ – رَوْحَةٌ – قَدَمٍ – امْرَأَةً – نصيف " يدل على الوَحْدة، أى أن كلا منها شىء واحد لا أكثر، فالغدوة واحدة، والروحة واحدة، والقوس واحد، والقدم واحدة، والمرأة والنصيف، وكل واحد منها " خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا "، فالدنيا وما فيها لا تساوى غدوة واحدة فى سبيل الله، ولا تساوى روحة واحدة فى سبيل الله، ولا تساوى موضع قوس واحد فى الجنة، ولاتساوى موضع قدم واحدة فى الجنة، ولا تساوى خمار امرأة من أهل الجنة، فما أهون الدنيا وما فيها !! وهذا الإفراد رباط ناظم لهذه المعانى فى سلك واحد ٠

والعطف ب " أو " فى قوله " غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ – وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنْ الْجَنَّةِ " يفيد التقسيم، أى أن الغدوة فى سبيل الله وحدها خير من الدنيا وما فيها، وأن الروحة فى سبيل الله وحدها خير من الدنيا وما فيها ؛ وعلى هذا فالعطف ب " أو " يؤكد معنى الوَحدة التى أفادته صيغة المفرد فى " غَدْوَةٌ – رَوْحَةٌ – قَدَمٍ – امْرَأَةً – نصيف "، وهكذا يتلاقى البيان ويتآلف ٠ أما جملة " وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا " فإنها لما خلت من العطف ب " أو " التى تعطف مفردا على مفرد، استعاضت عن ذلك بأن ذكرت فى المرأة أمرين لا أمرا واحدا: الأمر الأول: اطلاعها إلى الأرض، والأمر الثانى: نصيفها أى خمارها، وجعلت نصيفها وحده خيرا من الدنيا وما فيها، وجعلت مجرد اطلاعها إلى الأرض يضىء مَا بَيْنَهُمَا ويملأ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، والضمير فى " بينهما " يعود على غير مذكور للعلم به، أى ما بين السماء والأرض ٠ وهذا كله من شريف النظم الذى ألف المعانى والمبانى وجعل الحديث جسدا واحدا ٠

ذكر الأُبِّيُّ أن الغدوة والروحة ذُكِرا للغالب، فكذا من خرج فى منتصف النهار أو منتصف الليل، ومعنى هذا الحديث: أن فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله وثوابهما خير من نعيم الدنيا كلها لو ملكها الإنسان وتصور تنعمه بها كلها ؛ لأنه زائل ونعيم الآخرة باق ؛ من أجل أن الدنيا فانية وكل شىء فى الجنة وإن صغر فى التمثيل لنا – وليس فيها صغير – فهو أدوم وأبقى من الدنيا الفانية المنقطعة، فكان الدائم الباقى خيرا من المنقطع [1] ٠

ثالثا: الطباق:

(١)ينظر شرح النووى على مسلم ٦/ ٣٥٩، وفيض القدير ٥/ ٣٥٣

(عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"(١) .

ذكر الحديث ثلاث خصال يجد المؤمن بها حلاوة الإيمان، الخصلتان الأولى والثانية تجمعهما المحبة، فليس بينهما تضاد بل توافق وتآلف، والتضاد كان بينهما وبين الخصلة الثالثة وهى كراهية أن يعود فى الكفر، فبين الحب والكراهية طباق ظاهر ؛ يبين أن محبة الله ورسوله والمؤمنين لا يمكن أن تجتمع مع محبة الكفر أبدا، قال تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) [الحجرات٧]، وفى قوله ﷺ: " وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ " طباق السلب بين " يحب – ولا يحب "، وأظهر هذا الطباق أنه ليست العبرة بمجرد وجود المحبة بين المؤمن والمؤمن فى الظاهر = فكم من محبة تنقلب عداوة وبغضاء ؛ لأنها لم تكن محبة صحيحة خالصة لوجه الله تعالى = بل العبرة بأن تكون المحبة لله تعالى لا لغرض دنيوى ولا لمنفعة أو مصلحة .

ومن شريف النظم الذى يؤلف الكلام ويشد بعضه إلى بعض ابتداء كل خصلة من الثلاث ب " أنْ " المصدرية والفعل المضارع المنصوب بها " أَنْ يَكُونَ – وَأَنْ يُحِبَّ – وَأَنْ يَكْرَهَ "، ولم يقل فى الخصلة الأولى: أن يحب الله ورسوله، كما قال فى الخصلة الثانية " وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ "، بل استعمل اسم التفضيل " أَحَبَّ " للدلالة على أن حبه لله تعالى ولرسوله ﷺ لا يعدله حب لسواهما، حتى حبه لنفسه التى بين جنبيه .

ومن شريف هذا النظم أيضا تقييد كل من الخصلتين الأخيرتين بقيد، فقيد حبه للمرء فى الخصلة الثانية بجملة " لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ " لأن هذا القيد هو المقصود، وهو الذى يرتفع به حب المؤمن لأخيه . وإذا كانت جملة " لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ " بينت الإخلاص فى محبة المؤمن للمؤمن، فقد بين التقييد بالجملة التشبيهية فى قوله " كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ " شدة الكراهية للعودة إلى الكفر .

ومن التناسب أيضا أن حلاوة الإيمان لما كانت أمرا يجده المؤمن فى قلبه كانت الخصال الثلاث التى تحصل بها أمورا قلبية منشؤها ومحلها القلب: وهى الحب والكره .

رابعا: المقابلة:

١– " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري كتاب الإيمان بَاب حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، برقم ١٦

فَلَا انْتَقَشَ ٠ طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ " [1] ٠

المناسبة بين العبد الآخذ بعنان فرسه فى سبيل الله تعالى وعبد الدرهم وعبد الدينار وعبد الخميصة هى المقابلة التى تُظْهِر الفرق بينهما إظهارا، فالآخذ بعنان فرسه فى سبيل الله تعالى عبد لله، لم تستعبده الدنيا، ولم يستعبده المال ولا العَرَض الزائل، أما عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة فهم عبيد لذلك، وهذا تقابل يميز الفرق بينهما ٠ ويلاحظ أن الحديث عبر عن كل منهما بأنه " عبد "، ولكن يا بُعْدَ ما بينهما، فعبد الدرهم والدينار والخميصة عبد ذليل، يذل نفسه فى سبيلها ويهدر كرامته وعزته من أجلها، فهو عبد ذليل مهان، أما الثانى فهو " عبد " لكنه عزيز كريم أَبِيٌّ يأنف الضيم ؛ ولذا وصفه الرسول ﷺ بما يدل على ذلك فقال عقب التعبير عنه بأنه عبد: " آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "، ولاحظ التعبير باسم الفاعل " آخذ " وما فيه من دلالة على رجولته وقوة همته وعزيمته، وقوله " بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله " يصف تمام الاستعداد والتأهب للغزو والجهاد فى سبيل الله ويصور صورته رأى العين لنراه وهو ناهض على صهوة جواده، ممسك بعنان فرسه، متأهب لصيحة الجهاد، صيحة العزة والكرامة، ولو قيل: طوبى لعبد يجاهد فى سبيل الله – لما رأيناهذا التصوير البارع الذى جعل هذا العبد كأنه أمامنا نراه رأى العين ٠

المقابلة الثانية أن الآخذ بعنان فرسه فى سبيل الله له " طُوبَى " فُعْلَى من كل شىء طيب، وهذا يعنى السعادة، أما عبد الدينار والدرهم والخميصة فله التعاسة وهى ضد السعادة ٠

والمقابلة الثالثة أن الآخذ بعنان فرسه فى سبيل الله تعالى " أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّة قَدَمَاهُ "، وهذان الوصفان يتقابلان مع عبد الخميصة أى العاكف على خميصته كأنه يعبدها لمزيد انشغاله بمظهره وشكله وزينته ٠

وثمة مقابلة رابعة جاءت فى وصف الطرف الأول: عبد الدرهم والدينار والخميصة، وهى قوله ﷺ " إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ " قوبل " أُعْطِيَ " ب " " لَمْ يُعْطَ " وقوبل " رَضِيَ " ب " سَخِطَ " مقابلة اثنين باثنين، وتكشف المقابلة عن سريرة هذه النفس التى ملأت قلبها بالدنيا، فصار رضاها وسخطها رهنا بما تنال من الدرهم والدينار والخميصة، فرضاها فى نيلها، وسخطها فى حرمانها، وهكذا تتقلب نفسه بين الرضا والسخط مع تقلب الدرهم والدينار والخميصة، عطاء وحرمانا، وصعودا وهبوطا، وقلة وكثرة، وهذا الوصف فى الحديث الشريف ناظر إلى قوله تعالى " وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ

(١)صحيح البخاري كتاب الجهاد والسِيَر بَاب الْحِرَاسَةِ فِي الْغَزْوِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، برقم ٢٨٨٦

فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ " [التوبة٥٨]، ولعل تقلب هذه النفس المتعلقة بالدنيا بين العطاء والمنع والرضا والسخط يقابله تقلب العبد الآخذ بعنان فرسه فى سبيل الله تعالى بين كونه فى الحراسة وكونه فى الساقة فى قوله ﷺ " إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ " مع شدة البون بينهما، فالأول متقلب النفس رضا وسخطا بتقلب حاليه بين العطاء والمنع من هذه الفانية، والثانى نفسه راضية مطمئنة بما يكون فيه من مواقع الجهاد فى سبيل الله تعالى، قائدا كان أو مقودا، فى الحراسة أى فى صدارة الجيش وطليعته يرصد ويحرس ويراقب ويقود، أو فى الساقة أى فى مؤخرة الجيش وهو جندى مجهول فى غمار الجيش يفعل ما يؤمر به من قيادته، هو راضٍ فى تقلبه فى تلك المنزلتين لأنه يعمل لله جل جلاله، ويراقب الله جل جلاله، ويخلص لوجهه الكريم، لا رياء ولا سمعة ولا من أجل درهم ولا دينار ٠

٢- (عن أبى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ") [١] ٠

الحديث مكون من ثلاث جمل، صارت كلها كأنها جملة واحدة لا يتم المعنى إلا بها، وبين الأولى والثانية مقابلة معنيين بضديهما، قوبل الأمر بالنهى والإتيان بالاجتناب، والمقابلة جعلت هذه العبارة الموجزة من جوامع الكلم ؛ لأنها تشمل كل شرائع الدين التى أمر بها الرسول ﷺ، كما تشمل ما يجب على المؤمن تجاهها، فهذه الشرائع أمرٌ ونهىٌ، والمؤمن مطالب باجتناب المنهيات وفعل المأمورات، ولا يخرج أمر فى الشريعة عن هذا المدار، و لو اكتفى الحديث بأحد الأمرين وسكت عن الآخر لما كان من الجوامع الكوامل التى تجمع للأمة أمر دينها فى كلمات معدودات ٠

وعبر بالاستطاعة فى جانب المأمورات دون المنهيات ؛ لأن المنهيات مطلوب أن تجتنب كلها، أما المأمورات فإن العبد يأتى منها ما يطيق ويدخل تحت وُسْعِه ؛ إذ لا تكليف إلا بما فى الوُسْع والطاقة " لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا " [البقرة٢٨٦]، ففى تقييد المأمورات بالاستطاعة احتراس مما يفوت القدرة ويخرج عن الوُسْع، وهذا الاحتراس نظير الذى فى قوله تعالى " فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ " [التغابن١٦] ٠

قال النووى " قوله ﷺ " وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ " هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التى أُعْطِيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام"[١] ٠

(١)متفق عليه واللفظ لمسلم فكتاب الحج بَاب فرض الحج مرة فى العمر، وفى كتاب الفضائل باب وجوب اتباعه ﷺ، برقم ١٣٣٧

والجملة الثالثة " فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ " جملة تعليلية تثبت أن عدم طاعة الرسول ﷺ سبب الهلاك، وأن الذى أهلك من قبلكم هو عدم طاعتهم لأنبيائهم، وعبر الحديث عن ذلك بصورة هى أشد صور العصيان وهى اختلاف الأمم على أنبيائهم ؛ لأن الاختلاف مع الرسول أمرٌ بالغ النكارة، كيف يختلف العبد مع رسول كريم يبلغ رسالة رب العالمين ؟ كيف يختلف معه وهو الذى يهديه ويعلمه ويمحو عنه ضلاله وجهله وينور بصيرته ؟

وقوله " وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ " بالضم عطف على الكثرة لا على السؤال لأن الاختلاف على الأنبياء حرام قَلَّ أو كَثُر، وهذا أبلغ فى ذم الاختلاف ؛ بخلاف ما لو جُرَّ فإنه يدل على أن المذموم كثرة الاختلاف على الأنبياء، وليس الاختلاف كله قَلَّ أو كَثُر (٢)

ومن الدقة الفائقة التعبير بحرف الجر " على " دون " مع "، فلم يقل: واختلافهم مع أنبيائهم ؛ لأن " على " تشعر بالاستعلاء، وكأن هؤلاء الأقوام كان اختلافهم على أنبيائهم مبنيا على الاستعلاء على الأنبياء والتكبر عليهم والاستهزاء بهم ؛ فجمعوا بين العصيان والتكبر ؛ ولهذا وصفهم القرآن الكريم بصفة التكبر، كما فى قوله جل جلاله " قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ " [الأعراف٧٥، ٨٨]، " وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً " [نوح٧] ٠

وأما كثرة السؤال وهو السبب الأول لهلاك الأمم فلم يُذْكَرْ صراحة قبل فاء التعليل، وكثرة السؤال منهى عنها ؛ ولذا فهى داخلة فى جملة " مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ "، وتخصيصها بالذكر فيه دلالة على أن كثرة سؤال الأنبياء خطر كبير ؛ لأن كثرة الشغب على الأنبياء توجب العنت والتضييق والمشقة على الأمم، وتفتح أبواب المراء الجالب للخلاف عليهم ؛ ولذا قدم كثرة السؤال على الاختلاف على الأنبياء لأنه سبب له ٠ ومن دقة البيان النبوى التعبير بالجمع فى " كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ " فجمع المسائل يناسب معنى الكثرة، وهذا يعنى كثرة الأسئلة وتنوعها طلبا للخلاف وحبا للجدال والتضييق على الناس، وجاء فى رواية أخرى لمسلم بلفظ " فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم " (٣)، بإفراد كلمة " سؤال " مع التعبير قبله بالكثرة، وفيه ملحظ آخر وهو أن السؤال الواحد يفرعون ويشققون منه أسئلة كثيرة، فالسؤال لم يعد سؤالا واحدا، بل تشعبت منه أسئلة، فدلت رواية " كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ " على كثرة الأسئلة وتنوعها، ودلت رواية " كثرة سؤالهم: على كثرة تفريع الأسئلة من السؤال الواحد وتشقيقها ٠ وتشديد بنى إسرائيل على أنفسهم بكثرة السؤال عن البقرة التى أمروا بذبحها مثال خلَّدَه القرآن الكريم لهذه الآفة التى تهلك الأمم،

(١)شرح النووى على مسلم ٩/ ١٠٢
(٢)ينظر فيض القدير ٣/ ٥٦٢ حديث رقم ١٥٩٧
(٣)رواه مسلم فكتاب الحج بَاب فرض الحج مرة فى العمر، برقم ١٣٣٧

وقد أَدَّبَ الله تعالى المؤمنين بقوله جل جلاله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ " [المائدة١٠١]، وقال الرسول ﷺ: " إن أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيء لم يُحَرَّمْ ؛ فَحُرِّمَ من أجل مسألتِه "(١) .

مراعاة التناسب القرآنى:

(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ؛ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ؛ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا " (٢)

الجمع بين الوصية بالنساء والوصية بعدم إيذاء الجار ناظرٌ إلى الجمع بينهما فى تلك الآية الجامعة " وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ " [النساء٣٦]، فالجار فى الحديث الشريف يشمل الجار ذى القربى، أى الجار الذى بينك وبينه قرابة، والجار الجُنُب أى الذى ليس بينك وبينه قرابة، والصاحب بالجنب فى الآية يدخل فيه الزوجة، فجمعت الآية بين الجار والزوجة وجمع الحديث بينهما وإن عَمَّ النساء جميعا ولم يخص الزوجة فقط، وهذا ضرب من الاقتباس يراعى التناسب القرآنى .

الجملة الأولى من الحديث حرمت إيذاء الجار، والزوجة جار ؛ فلها حق الجوار فضلا عما لها من حقوق الزوجية، وتلك رابطة تجمع طرفى الحديث .

بناء الحديث على حذو واحد:

" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما يرفعه إلى الرسول ﷺ أنه قَالَ: " لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ ؛ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنْ اللَّهِ ؛ لِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ " (٣) .

(١)متفق عليه واللفظ للبخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ما يُكْرَهُ من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه، برقم ٦٢٨٩

(٢)صحيح البخاري كتاب النكاح بَاب الْوَصَاةِ بِالنِّسَاءِ، برقم ٥١٨٥

(٣)صحيح البخاري كتاب التفسير بَاب قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ " قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ "، برقم ٤٦٣٧

من شريف النظم أن الجملتين اللتين هما أصل المعنى فى الحديث حُذِيَتَا حَذْوَاً واحدا، فقوله " لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ " وقوله " وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنْ اللَّهِ " لهما سَمْتٌ واحد ؛ لأن كلا منهما افتتحت بنفى الجنس: " لَا أَحَدَ –وَلَا أَحَدَ " بعده اسم التفضيل " أَغْيَرُ – أَحَبُّ "، ثم " مِن " الجارة واسم الجلالة " الله " دون الاكتفاء بالضمير العائد إلى اسم الجلاله فى الجملة الثانية بل أوثر التعبير باسم الجلالة " الله " فى موضع الضمير، وكان يمكن أن يقال: ولا أحد أحب إليه المدحة منه، وفى الإظهار إشارة إلى استحضار العبد أنه يمدح الله تعالى، أهل الثناء والمجد الذى لا تحصى نعماؤه ولا تعد آلاؤه، وأن العجز محيط بالمادح عن الوفاء بما يليق بجلال الله تعالى وكماله من الثناء والمدح ؛ ولذا عَلَّمَنا المصطفى ﷺ وهو أفصح العرب وأقدرهم على الإحاطة باللغة، عَلَّمَنَا أن الناس جميعا يقفون دون الغاية فى بلوغ ما يليق بالله جل جلاله من المدح والثناء، فقال: " لا أُحْصِى ثَنَاءً عليكَ ؛ أنتَ كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِك " [1] .

ومن حذو الجملتين على مثال واحد وسَمْتٍ واحد تعقيبُ كل منهما بجملة تعليلية مبدوءة بفاء التعليل الداخلة على اسم الإشارة للبعيد " فلذلك "، وبعد اسم الإشارة فعل ماض فاعلُه ضمير مستتر يعود على الله جل جلاله " حَرَّمَ – مَدَح "، وبعد الفعل الماضى مفعوله الاسم الصريح " الفواحش – نفسه "، والجملة التعليلية الأولى تكشف عن سبب غيرته سبحانه، والثانية تكشف عن سبب حبه للمدحة، فقوله:

" فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ "

"لِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ "

بناء واحد، وسَمْتٌ واحد، وحَذْوٌ واحد، وجيء بعد الجملة التعليلية الأولى " فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ " بقيد فيها وهو قوله " مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " مع أن العموم فى كلمة " الفواحش " يفيد شمول كل الفواحش، وذلك لمزيد توكيد العموم، والتضاد بين " ظهر " و " بطن " يكشف هذا العموم مرة ثانية ويزيده تأكيدا وتقوية ؛ لأن الفواحش لا تخرج عن هذين القسمين: ما ظهر وما بطن، وفى هذا تركيز على التضاد الذى بُنِىَ عليه الحديث . وحُبُّهُ جل جلاله للمدح يعنى رضاه عنه وقبوله إياه وإجزاله الثواب عليه ؛ ولذا جاء فى رواية أخرى "، وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنْ اللَّهِ ؛ ومن أجل ذلك وعد الله الجنة " [2]، وزيد فى هذه الرواية الأخيرة جملة ثالثة وهى قوله ﷺ " ولا أَحَدَ أَحَبّ إليه العُذْر من الله ؛ ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين " وهذه الزيادة تبيِّن أن سبب بعث المبشرين والمنذرين هو حبه جل جلاله للعذر، أى أن يزيل عذر الناس فلا يبقى لأحد منهم عذر بعد إرسال الرسل

(١)رواه مسلم فى كتاب الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود، برقم ٤٨٦

(٢)صحيح البخاري فى كتاب التوحيد بَاب قول النبى ﷺ " لَا شخص أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ"، برقم ٧٤١٦

مبشرين ومنذرين، والعلاقة الجامعة بين هذه الجملة والجملتين اللتين فى الرواية الأولى أن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى مبشرين ومنذرين هم الذين يدلون الناس على الطاعة التى تجعلهم أحب إلى الله تعالى ويحذرونهم الفواحش التى تجلب عليهم غضب الله جل جلاله، وصيغت الجملة أيضا على حذو الجملتين الأوليين وعلى طريقتهما فى الابتداء بنفى الجنس " ولا أحد " بعده اسم التفضيل " أحب "، ثم " مِن " الجارة، واسم الجلاله " الله "، وتعقيب هذه الجملة بجملة تعليلية مبدوءة بفاء التعليل الداخلة على اسم الإشارة للبعيد " فلذلك " وبعد اسم الإشارة فعل ماض فاعله ضمير مستتر يعود على الله جل جلاله " حَرَّمَ – بَعَثَ "، وبعد الفعل الماضى مفعوله الاسم الصريح " المبشرين والمنذرين " .

الصورة السادسة: المناسبة بين الأحاديث

معرفة مناسبة الحديث للحديث الذى قبله باب لم تطرقه الدراسة البلاغية بعد، وفيه خير كثير، وهو دال على حسن نظر الأئمة الذين صنفوا حديث رسول الله ﷺ ؛ لأن تصنيفهم قائم فى مجمله على لمح المناسبة بين الأحاديث ؛ لأنها هى التى تسوغ تصنيفها فى باب واحد أو مسألة واحدة، وقد يختلف هذا الترتيب فى أحاديث الباب الواحد بين صحيح البخارى وصحيح مسلم، رحمهما الله، وهذا باب جليل أرجو أن يفتحه الدرس البلاغى ؛ وهو ناظر إلى قرينه فى البلاغة القرآنية، أعنى مناسبة السورة للسورة التى قبلها والتى بعدها، مع ملاحظة الفرق الجوهرى بينهما ؛ لأن ترتيب السور توقيفى كان بأمر الرسول ﷺ أن توضع سورة كذا بعد سورة كذا، أما ترتيب الحديث فمن فقه العلماء الذين قاموا على خدمة الحديث النبوى بجمعه وتصنيفه وتبويبه وترتيبه، وقام عملهم هذا على الاجتهاد والفطنة، وقد نبه الشراح على أشياء كثيرة من هذا، ولكن الأمر يحتاج إلى دراسة خاصة تنهض به من الوجهة البلاغية ٠

وهذان أنموذجان من صحيح البخارى حاولت فيهما لمح المناسبة بين الأحاديث:

الأنموذج الأول:

من كتاب الجهاد والسير، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا " ٠ هذا الباب تحته أثرين من كلام الصحابة رضى الله عنهم، وحديث بلفظ النبى ﷺ، وترتيبها فى صحيح البخارى:

٢٨٠٥- أَثَرٌ عن أَنَس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ ؛ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ٠

٢٨٠٦- حديث أَنَس بْن النَّضْرِ أنَّ أُخْتَهُ وتُسَمَّى " الرُّبَيِّعَ "كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ امْرَأَةٍ ؛ فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا ! فَرَضُوا بِالْأَرْشِ وَتَرَكُوا الْقِصَاصَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ "٠

٢٨٠٧- أَثَرٌ عن زَيْدِ بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: " نَسَخْتُ الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، فَفَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا، فَلَمْ أَجِدْهَا إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ قَوْلُهُ " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " ٠

الأحاديث الثلاثة يجمعها رباط واحد وهو " الصدق مع الله جل جلاله "، فهى كلها مندرجة تحت قوله عز وجل " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ "، أنس بن النضر فى الحديث الأول صدق الله جل جلاله، فجاهد عندما انكشف المسلمون يوم أحد حتى قضى نحبه، وأنس بن النضر فى الحديث الثانى صدق الله تعالى فأبر الله تعالى قسمه فلم يُقْتَصّ من أخته الرُّبَيِّع، وفى الحديث الثالث بلغ خزيمة ابن ثابت من الصدق أن جعل الرسول ﷺ شهادتَه تَعْدِلُ شهادة رجلين ٠ الأحاديث الثلاثة تحكى ثلاثة مواقف صعبة، ولم تكن النجاة فيها والمخرج منها إلا بالصدق مع الله جل جلاله – فهذا رباط جامع ٠

والأحاديث الثلاثة يطوى كل منها وراءه قصة لم يصرح بها ؛ إغراء بالبحث عنها: فكم قَتَلَ أنس ابن النضر من المشركين يوم أحد حتى ضُرِبَ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ ؟ ثم ما حالُه مع الله جل جلاله حتى أبرَّ الله تعالى قسمه فى ثنية أخته ؟ وما قصة خزيمة التى من أجلها جعل الرسول ﷺ شهادته بشهادة رجلين ؟ – هذا رباط ثان جامع ٠

ومن التناسب بين الأول والثانى أن أنس بن النضر وأخته الرُّبَيِّع هما الشخصيتان الحاضرتان بقوة فيهما، فالحديثان يقصَّان من خبرهما، ولم يذكر من شأنهما إلا قصة أنس يوم أحد وقصة أخته يوم كسرت ثنية امرأة ؛ لأن الصدق هو رأس الأمر فيهما ٠ وفى الحديث الأول لم تحضر الرُّبَيِّع إلا فى آخره بعدما استشهد أخوها أنس ومُثِّلَ به فلم يعرفه أحد إلا أخته عرفته ببنانه، وفى الثانى حضرت الرُّبَيِّع فى صدر الحديث عندما كسرت ثنية امرأة ثم تُرِكَ المجال لأنس الذى أقسم على الله فأبره ٠ وفى قصة أنس فى الحديثين غرابة فيما صنع المشركون به من كثرة الضرب والطعن حتى هلهلوا جسده ومثلوا به بعد قتله ؛ فلم تُعْرَفْ معالمُه، والغرابة فى الحديث الثانى فى قسمه على الله جل جلاله أن لا تُكْسَر ثنية الرُّبَيِّع مع أن كسرها هو القصاص، وهو حكم الله الذى أنزل فى كتابه، ثم هو قسم ملىء بالثقة فى الله عز وجل، وهذا ظاهر جدا فى قوله للرسول ﷺ " وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ " وفى

قسمه الذى اختار تَوَدُّدٌ إلى الله جل جلاله بأنه بعث أفضل الخلق وأكرمهم ﷺ بالحق، ففيه تركيز على حدث البعثة وهو التحول الأكبر فى تاريخ البشرية إلى أن تقوم الساعة، وهذا أمر عظيم، وفيه إسقاط على خطورة ما يريد أنس من ضراعته إلى الله بعدم كسر ثنية أخته، وأن هذا الكرب لا يكشفه إلا الله جل جلاله، فهو يحتاج إلى قدرة فوق قدرة البشر، وهذا اعتراف من أول الأمر بأن أنسا لا يستطيع كشف هذا الكرب بقدرته ولا بحيلته بل باللجوء إلى من شرع القصاص وحكم به فى كتابه وجعله باتا على جميع عباده، فهو وحده الذى يفرج عن قلوب أوليائه وأصفيائه ويحول ما هم فيه من ضيق وبؤس إلى فرج ونور وانشراح كما حول العالم كله من ضيق وبؤس وظلام دامس إلى نور وحياة وأمل ببعثة المصطفى ﷺ ٠ ولم يكتف أنس فى قسمه بأن يقول: والذى بعثك لا تُكْسَرُ ثنيتها، بل قيد بعثه ﷺ بالحق، وهى كلمة غريبة فى هذا المقام ؛ إذ كيف يتوسل إلى الله الحق الذى بعث رسوله بالحق لصرف القصاص عن أخته مع أن القصاص هنا هو الحق ؟ وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينكر أن القصاص هنا هو الحق الذى وجب على أخته، ولا يمارى فى هذا، ولا يشك فيه، وهذا مدخل مناسب جدا لطلبه ؛ لأنه يطلب شيئا من فضل الله تعالى ورحمته وتعطفه على من لا ملجأ منه إلا إليه، ومن نفض يده من الخلق وقصد الخالق الذى بيده كل شىء، الذى يجعل لكل هم فرجا ولكل ضيق مخرجا من حيث لا يحتسب الناس، وهذا ما كان حيث رضى أصحاب القصاص بالأرش – أى بالدية – فأبر الله قسم أنس ٠ وفى قول أنس " لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا " وصفٌ للجناية وللقصاص جميعا ؛ فكسر الثنية بكسر الثنية، السن بالسن، ولو قال أنس: لا يُقْتَصُّ منها، لكان فيه تصريح بالقصاص الذى يتوسل إلى ربه ويتودد إليه أن لا يكون ؛ ولذا محا صورته من اللفظ ؛ لأنه يريد شيئا فوقه، يريد المَنَّ والفضل ٠ وقول الرسول ﷺ:" إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ " مما لا تشبع النفس منه ؛ لأنه يفتح أبواب الأمل فى تفريج الله عن كل مكروب وإن سأله فوق ما يتصوره الناس وفوق ما تقضى به ظواهر الأمور ومقتضيات الأحوال، نعم، وإن نفدت الأسباب وانقطعت الآمال وضاقت على الناس الأرض بما رحبت ٠

إن سيما الصدق ظاهرة فى عبارة أنس ناطقة بمكنون نفسه وضميره ، ففى قوله " لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ " أسند الفعل " أَشْهَدَنِي " إلى الله مرتين، مرة إلى اسم الجلالة، ومرة إلى الضمير العائد إليه، ووراء هذا علمه ويقينه أن شهوده قتال المشركين لا يكون إلا بقَدَر الله الغالب ومشيئته وإرادته ؛ ولذا لم يقل: لئن شهدتُ ٠ وفى قوله " لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ " أسند الرؤية إلى الله جل جلاله، ولم يقل: لَتَرَيَنَّ يا رسولَ الله ما أصنع، والفرق بينهما كبير ؛ لأنه لا يراقب بعمله إلا الله ولا يريد به إلا وجهه، ولا ينظر إلى الخلق، وإن كان الذى سيرى بلاءه وجهادَه أشرفُ الخلق ﷺ، وهذا من أعلى مراقى الصدق ؛ ولذا نزل فيه تلك الآية الفذة الجامعة " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " ٠ إن العبارة التى تسبق إلى لسانى فى مثل هذا أن أقول للمخاطَب: لئن

شهدتُ كذا لَتَرَيَنَّ ما أصنع!! لأننا نشأنا ورُبِّينا على حب الظهور والمباهاة والإعلام بما نصنع بشتى الوسائل، مع أن ما نصنع أشياء تافهة لا تقاس بما صنع أنس ابن النضر والنفر الكرام من الصحابة رضوان الله عليهم ٠

وذكر ابن حجر أنه وقع فى رواية ثابت عند مسلم بزيادة " وَهَابَ أن يقول غيرَها "، قال ابن حجر " أى خشى أن يلتزم شيئا فيعجز عنه ؛ فأَبْهَمَ، وعُرِفَ من السياق أن مراده أن يبالغ فى القتال وعدم الفرار"(١)، وهذا كلام نفيس جدا، ودالٌّ على تحرز أنس رضى الله عنه وورعه وفطنته حيث لم يعين

أشياء محددة يصنعها إن أشهده الله تعالى قتال المشركين، وهذا شيء وما يجرى على ألسنتنا شيء آخر، نقول: لئن شهدتُ كذا لأفعلنَّ كذا وكذا، وهذا من عدم الحذر وقلة الفطنة، وما يدرينى أنى إن شهدت كذا سأكون قادرا على إمضاء ما قلت والوفاء بما وعدت وإنجاز ما قطعت ؟! رحم الله أنس بن النضر فقد علمنا كثيرا ٠

ومن سيما الصدق فى عبارة أنس قولُه " يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ " لم يشغل العبارة بذكر سبب غيابه يوم بدر وبيان عذره عن التخلف عنه ؛ لأن هذا أمر قد كان ومضى لسبيله، المهم عنده الآن أن يُظْهِرَ أثر غيابه هذا فيما هو فيه مع رسول الله ﷺ والمؤمنين يوم أحد ؛ لأن غيابه هذا أحدث فى نفسه هِزَّةً وزلزلة وأثرا كبيرا ؛ ولهذا زاد ثابت فى روايته عن أنس بن مالك عند مسلم " فكبر عليه ذلك "، وهى وصف لأثر غيابه فى نفسه، وأنه كان أمرا كبيرا على نفسه، وهكذا النفوس الحساسة المرهفة المشوقة إلى ربها، لا ترى الغياب عن مشاهد الإسلام ولا سيما مشهد بدر – لا تراه أمرا سهلا ٠ وقدم أنس قوله " يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ " لأن هذا الغياب سيكون له أثر فيما يصنع يوم أحد، فهو الذى كان وراء حسن بلائه يوم أحد، فكان أنس كالسيف المسلول من غمده، وكالليث هب من رقدته، وهكذا النفوس المؤمنة إذا استيقظت لاستدراك ما فات من الخير وما غابت عنه من مشاهد العز والمجد والكرامة، ترى لغيابها عن ذلك أثرا جليلا فيما تصنع، حتى تقول إن غيابها صنع بها وبالأمة خيرا، وأىَّ خير! وأسدى إليها وإلى الأمة معروفا، وأىَّ معروف ! وهذا الاعتراف بالغياب عن يوم بدر ووضعُه فى أُنُفِ الكلام مِنْ صِدْقِ أنس رضى الله عنه ٠ ولم يقل: غبتُ عن يوم بدر، بل قال "غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ " لبيان عِظَمِ أثر ذلك الغياب على نفسه ؛ لأنه أول قتال فى الإسلام قاتل الرسول ﷺ المشركين، وأنس فارس سبَّاقٌ ونفس سبَّاقة، يرغب دائما أن يكون الأول فى كل فضل ومجد وشرف، فكيف يفوته أول قتال للمشركين ؟ ثم كيف يفوته أن يكون مع الرسول ﷺ فيه ؟ ولذا أسند قتال المشركين للرسول ﷺ فى قوله "قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ " ولم يقل عبارتنا السطحية المغسولة: أول قتال للمشركين ؛ لأن شهود رسول الله

(١)فتح البارى ٦/ ٢٧

ﷺ هذا القتال يزيد من تحسر أنس، وهذا كاشف عن شيء من جوهر الصدق ونبعه العذب فى نفس أنس ٠

وقول أنس " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ " من الكلام العالى ؛ لأنه يصور علو نفس قائله، وصدق هذه النفس التى شقت لها طريقا وحدها ومسلكا وحدها وسيرة وحدها ؛ لأنها رأت يوم أحد أمرين متناقضين، وهى تكرههما جميعا، رأت انكشاف المسلمين، وهى تكرهه، ورأت التفاف عصبة الشرك حول رسول الله ﷺ يريدون قتله، ونفس أنس تكره هذا أشد من كراهيتها للأول، فلم يرض أنس عما صنع هؤلاء ولا هؤلاء ؛ ولذا شق له طريقا خاصا بعيدا عن هؤلاء وهؤلاء، إنه طريق من يجد ريح الجنة من دون أُحُد، فقذف بنفسه فى حومة القتال، واستقبل الحرب وهى تفور، لم يرهب الموت، ولم يتخاذل أو يفر، بل استجمع نفسه وعزمه ومضاءه وقوته وعُدَّتَه، فأبلى ما أبلى ! وقاتل ما قاتل ! وقَتَلَ ما قَتَل ! وطعن ما طعن ! وشتت من شمل العدو ما شتت ! وأخاف ما أخاف ! وأرعد ما أرعد ! وأظهر من بأس المسلمين ما أظهر ! فكان كأنه جيش وحده، هذا هو الطريق الذى ارتضاه أنس عندما انكشف المسلمون يوم أحد وأحاط المشركون برسول الله ﷺ، هو طريق الصدق الذى لا صدق فوقه، وطريق الجود الذى لا جود أعلى منه، والجود بالنفس أعلى غاية الجود ٠ وهذه الجملة التى قالها أنس قبل أن يدخل حومة القتال تدل على عدم رضاه عما صنع المسلمون مع اعتذاره عنهم، وهذا الاعتذار فيه ما فيه من سماحة هذه النفس ورقتها وصدق شعورها بما توجبه أخوة الدين ؛ ولذا تَحَمَّلَ عنهم الاعتذار، ثم هو اعتذار لِمَنْ ؟ لله جل جلاله، الذى لا يقصد أنس بعمله إلا وجهه، ومن صدق الأخوة أن تحمل عن أخيك وتعتذر عنه، وإن لم تكن راضيا عما صنع ؛ فلله دَرُّ هذه النفس ! ولم يقل أنس: اللهم إنى أعتذر إليك عن انكشاف المسلمين، بل عبر باللفظ العام " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ " لأن ما صنعوا شيء لا يرضاه ؛ ولذا لم يذكره فى العبارة، ثم هو أمر ظاهر مكشوف لا يشغل به الكلام ٠

وقول أنس " وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ " يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ – ليس بينه وبين الجملة السابقة فرق إلا فى كلمة " أعتذر " فى الأولى و " أبرأ " فى الثانية، وفى كلمة أعتذر من المعانى ما سبق ذكر غيض منه، وفى كلمة أبرأ دلالة على السلامة والخلوص مما صنع المشركون يوم أحد، وأن ما صنعوا أسخط أنسا غاية السخط ؛ لأنه قتلٌ للمسلمين الموحِّدِين لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله ورسوله، ثم إن المشركين أرادوا قتل أعز نفس وأكرم نفس خلقها الله تعالى وهى النفس التى تفديها كل نفس، أرادوا قتل الرسول ﷺ، وهذا أسخط أنسا أكثر وأكثر ؛ لذا أعلن براءته مما صنعوا، وفى البراءة تمامُ البُعْد والنجاة والنفور والسخط لما صنعوا ؛ ولذا جرت هذه الكلمة الجليلة على لسان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى "وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ

وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ"[يونس٤١]، " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ " [هود٣٥]،" قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ"[الممتحنة٤] ٠

ومن صدق أنس أنه أكد توجهه إلى الله تعالى، فلم يكتف بالنداء الذى صَدَّرَ به كلامه فى قوله " اللهم " بل كرر ضمير الخطاب مستحضرا جلال المخاطب جل وعز فى قوله " أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ– وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ "، ولو قال: اللهم إنى أعتذر ٠٠ وأبرأ ٠٠ لأفاد المعنى، ولكنه يريد شيئا آخر، يريد استحضار أنه يخاطب الله جل جلاله، وهذا أوجب للصدق والإخلاص، ولعل هذه المعانى ونظائرها مما خطر فى نفس الزَّيْن بن المنيَّر – وكان ذوَّاقة للبيان – فقال: " مِنْ أَبْلَغ الْكَلَام وَأَفْصَحه قَوْل أَنَس بْن النَّضْر فِي حَقّ الْمُسْلِمِينَ " أَعْتَذِر إِلَيْك " وَفِي حَقّ الْمُشْرِكِينَ " أَبْرَأ إِلَيْك " ؛ فَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَرْضَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مَعَ تَغَايُرهمَا فِي الْمَعْنَى "(١)

وفى هاتين الجملتين من شريف النظم ما لايخفى لبنائهما على حذو واحد:

" اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ،

وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ "

وهذا مما يزيد الكلام تناسبا وتآلفا ٠

وآخر كلام أنس فى الحديث الأول هو قوله " يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ، وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ "، وهى الجملة التى استقبل بعدها المشركين، ومن دلائل الصدق فيها أنه وجد ريح الجنة مِنْ دُونِ أُحُدٍ، ووراء هذا صفاء روحه التى وجدت ريح الجنة مع أنها لا تزال فى ضيق الدنيا وكربها الكارب ٠ ومنها أنه وصف ما وَجَدَ هو ولم يقل: إن ريح الجنة مِنْ دُونِ أُحُدٍ، وكرَّر الإسناد فى قوله " إِنِّي أَجِدُ "، وهذا يمد يدا إلى قوله " إِنِّي أَعْتَذِرُ ٠٠ وَأَبْرَأُ "، كله حذوٌ واحد، يصف ينبوع الصدق فى هذه النفس الصادقة التى لا تتزيد ولا تصف إلا ما وجدت ٠ وقَدَّمَ الجنة فى أُنُفِ كلمته لأنها هى مطلوبه ومقصوده، وكأنها دانية منه، وقوله " إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ " يدل على هذا القرب، وزاد كلامه تأكيدا وثقة بالقسم " وَرَبِّ النَّضْرِ " لأن الخبر غريب، كيف يجد ريح الجنة وهو لا يزال فى هذه الفانية ؟

كان جمعُ الإمام البخارى هذه الأحاديث الثلاثة تحت باب قول الله تعالى " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " مناسب جدا ؛ لأن كل حديث يمد يده إلى هذه الآية الكريمة ويصل إليها بسبب ويتحقق بها تحققا، فالآية صادقة على الأحاديث

(١)فتح البارى ٦/ ٢٩

الثلاثة، ولو ترجم البخارى هذا الباب ب " باب استشهاد أنس بن النضر " لصدقت هذه الترجمةُ على الحديث الأول فقط، ولو ترجم ب " باب إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره " لصدقت هذه الترجمة على الحديث الثانى فقط، ولو ترجم ب " باب فَقْدِ آية عند كتابة المصحف " أو " باب شهادة خزيمة بشهادة رجلين " لصدقت هذه الترجمة أو تلك على الحديث الثالث فقط ٠

وبين قصة أنس يوم أحد وقصة خزيمة التقاء فى البطولة مع تنوع صورها، فهى فى قصة أنس بطولة فى ساحة المعركة وحومة القتال، وفى قصة خزيمة بطولة فى الإيمان بالغيب وتصديق الرسول ﷺ، كيف لا يصدق الرسول ﷺ فى أمر دنيوى زائل وقد صدقه فيما هو أكبر منه، صدقه فى شأن الوحى والرسالة وهى عن غيب والأول عن شهادة ؛ ولذا جعل الرسول ﷺ شهادته تعدل شهادة رجلين [(١)]٠

وباب " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " ليس فيه مما هو صريح فى الجهاد إلا أثر أنس بن النضر يوم أحد، أما حديث أخته الرُّبَيِّع فهو فى القصاص، وقد أخرجه البخارى فى كتاب القصاص، وحديث زيد بن ثابت عندما لم يجد الآية الكريمة إلا مع خزيمة ليس فى الجهاد، بل فى فضائل القرآن وفى تفسير سورة الأحزاب، وقد أخرجه البخارى فيهما، ولكن لما كان الصدق مع الله جل جلاله عمود هذه الأحاديث الثلاثة جمعها البخارى تحت هذا الباب، وجعل الباب فى كتاب الجهاد تنبيها على أن الصدق مع الله جل جلالهليس خاصا بالجهاد فى سبيل الله، وأن المؤمن يبلغ هذه الدرجة ويكون من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه بصدقه وإخلاصه فى الجهاد وفى غيره، وهذا معنى ينبغى أن تُرَبَّى عليه الأجيال، ينبغى أن تُرَبَّى على الصدق والجد، ولا سبيل لرفعة الأمة إلا هذا ٠

أرجو أن يكون هذا البيان كاشفا عن طرف من التناسب بين الأحاديث الثلاثة التى قام عليها هذا الباب من ناحية، وعن طرف من مناسبة كل حديث منها للترجمة – أى لعنوان الباب – وتبقى جهة ثالثة من التناسب، وهى مناسبة هذا الباب للذى قبله والذى بعده،

---

(١) " عَنْ عُمَارَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ أَنَّ عَمَّهُ حَدَّثَهُ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَشْيَ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ فَيُسَاوِمُونَهُ بِالْفَرَسِ وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ فَنَادَى الْأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسَ وَإِلَّا بِعْتُهُ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ فَقَالَ أَوَ لَيْسَ قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ لَا وَاللَّهِ مَا بِعْتُكَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلَى قَدْ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ فَطَفِقَ الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ هَلُمَّ شَهِيدًا فَقَالَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ بِمَ تَشْهَدُ فَقَالَ بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ " [سنن أبي داود كتاب الأقضية بَاب إِذَا عَلِمَ الْحَاكِمُ صِدْقَ الشَّاهِدِ الْوَاحِدِ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ بِهِ ١٠/ ٢٥ برقم ٣٥٩٠]

ويمكن لمحها من عنوان الباب الذى قبله " بَاب قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ " وَالْحَرْبُ سِجَالٌ"، والحسنيان: النصر والشهادة، وقد استشهد أنس فى الحديث الأول من باب "مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " فنال إحدى الحسنيين، هذا رباط، كما أن باب " قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ " وَالْحَرْبُ سِجَالٌ" فيه حديث " أَبَى سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوَلٌ ؛ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمْ الْعَاقِبَةُ " فذكر هذا الحديث أن الحرب بين الرسول ﷺ والمشركين سجال ودول، وافتتح الباب الذ بعده بكلام أنس بن النضر أنه غاب عن قتال بدر، وقد انتصر فيه الرسول ﷺ على المشركين، ثم شهد أنس أحدا ولم يتم النصر فيها للرسول ﷺ، فكان هذا شرح لكون الحرب كانت سجالا ودولا بين الرسول ﷺ والمشركين ٠ وأما مناسبة الباب للباب الذى بعده وهو " بَاب عَمَلٌ صَالِحٌ قَبْلَ الْقِتَالِ وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ إِنَّمَا تُقَاتِلُونَ بِأَعْمَالِكُمْ وَقَوْلُهُ " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ " قال الكرمانى " المقصود من هذه الآية فى الترجمة قوله فى آخرها " صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ " ؛ لأن الصف فى القتال من العمل الصالح قبل القتال "[1]، وليس تحت هذا الباب إلا حديث ٢٨٠٨ " عن الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ ؟ قَالَ: " أَسْلِمْ، ثُمَّ قَاتِلْ " ؛ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَاتَلَ، فَقُتِلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " عَمِلَ قَلِيلًا، وَأُجِرَ كَثِيرًا "، ومن التناسب بين البابين أن الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من المؤمنين هم الذين يفعلون ما يقولون، الذين يقاتلون فى سبيل الله صفا كأنهم بنيان مرصوص، وأنس بن النضر منهم لأنه صدق ما عاهد الله عليه ولأنه قال ففعل، كما أن هذا الرجل المقنع بالحديد صدق الله تعالى فهو قرين أنس ٠ ومن التناسب بين الأبواب الثلاثة أن ترجمتها، أى عنوان كل باب منها، قام على آية من القرآن الكريم ٠

ومن اللطائف فى ترتيب هذه الأبواب أن الرُّبَيِّع بنت النضر أخت أنس ذُكِرَتْ فى الحديثين ٢٨٠٥، ٢٨٠٦ من باب " مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " وهو الباب الثانى عشر من كتاب الجهاد، وليس للرُّبَيِّع فيهما كلمة واحدة، ثم ذُكِرَتْ فى الحديث ٢٨٠٩ من الباب الرابع عشر " بَاب مَنْ أَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ " والأحاديث الثلاثة عن أنس بن مالك – ﷺ– وفى هذا الحديث الأخير أن الرُّبَيِّعَ قُتِلَ ابنُها حَارِثَةُ بْنُ سُرَاقَةَ يَوْمَ بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فأَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ ! فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ ٠ قَالَ:"يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ ! وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى "، وفى هذا الحديث

(١)فتح البارى ٦ / ٣٠

قبس من كلام الرُّبَيِّع – رضى الله عنها – يوم استشهد ابنها حارثة، وفيه ما يدل على رجاحة عقلها وصبرها واحتسابها، والأحاديث الثلاثة يجمعها أن فيها صورا من البلاء الذى لقيت الربيع فى حياتها: تعرضت للقصاص عندما كسرت ثنية امرأة لولا أن فرج الله عنها ما كانت فيه، ثم استشهد ولدها حارثة بسهمٍ غَرْبٍ أصابه يوم بدر، ثم استشهد أخوها أنس بن النضر يوم أحد ومثل المشركون به فلم يعرفه أحد إلا هى، عرفته ببنانه، ولا شك فى أن الجمع بين الأحاديث الثلاثة فى سياق قريب يعطى صورة عن الرُّبَيِّع، وتلك فائدة يحسن التنبُّه لها ٠ والله أعلم ٠

الأنموذج الثانى:

من صحيح البخاري كتاب الجنائز بَاب حَمْلِ الرِّجَالِ الْجِنَازَةَ دُونَ النِّسَاءِ، وفيه حديثان فقط على الترتيب الآتى:

– حديث رقم ١٣١٤: (عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِذَا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا ؛ أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا، يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ") ٠

– حديث رقم ١٣١٥: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " أَسْرِعُوا بِالْجِنَازَةِ ؛ فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً، فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا، وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ، فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ ") ٠

النظر هنا ليس فى صلة الرحم التى تجمع كل جملة بأختها، وإن كان هذا أمرا محققا فى الحديثين بلا ريب، وظاهر جدا أن التناسب بين الجمل فى كل حديث منهما عموده المقابلة بين الجنازة الصالحة وغير الصالحة، والتى تقول: ": قَدِّمُونِي " والتى تقول: " يَا وَيْلَهَا ؛ أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا " ٠ ولكنى أجد الوشائج وأواصر القربى والرحم كما تكون بين جمل الحديث ومعانيه، فإنها تكون بين الحديثين والأحاديث التى يجمعها معنى عام أو موضوع واحد، بحيث تتلاقى المعانى فى الحديثين أو الأحاديث، وتتآزر، بل وتتكرر بعض الألفاظ فيها لتكون معالم هادية لهذا التشابك والتواصل والتناسب، ثم ينفرد كل حديث منها بما يضيف إلى المعنى إضافةً يكون بها الحديث أصلا فى معناه ورأسا فى فقه مسألة أو تشريع، وهذه الإضافة أيضا تملأ مساحات كانت مسكوتا عنها فى الحديث الآخر، وبضم الحديثين أو الأحاديث تكتمل الصورة الكلية للمعنى أو الموضوع فى الحديث النبوى الشريف ٠

أما تلاقى المعانى وتشابكها وتكرار بعض الألفاظ الهادية إلى ذلك فى حديثى الجنازة السابقين فهو ظاهر جدا، فتقسيم الجنازة قسمين لا ثالث لهما: صالحة وغير صالحة عمود المعنى فى الحديثين، وقوله فى الأول " وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ " وقوله

فى الثانى " تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ " يتلاقيان ويتآخيان لأن الأول يحكى حمل الجنازة على الأعناق والثانى يحكى وضعها عنها، فهما متآلفان يكمل الثانى منهما الأول وإن كانت بينهما مقابلة حسنة بين الحمل والوضع ٠ وقوله فى الأول " فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً " هو نفسه قوله فى الثانى " فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً " ٠ وقوله فى الأول " قَدِّمُونِي " مع قوله فى الثانى " تُقَدِّمُونَهَا "، وقوله فى الأول " وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ " وقوله فى الثانى " وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ " – كل هذا كلام متآلف متناسق فى معانيه ومبانيه ٠

وأما ما انفرد به كل حديث من إضافات تتم بها الصورة الكلية للمعنى، فانفرد الحديث الأول بأن الجنازة يحتملها الرجال على أعناقهم، وأنها تقول إن كانت صالحة: قَدِّمُونِي، وَتقول إِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ: يَا وَيْلَهَا ؛ أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا، وأن كل شىء يسمع صوت الجنازة وهى تتكلم إلا الإنسان ولو سمعه صعق، انفرد الحديث الأول بذكر هذه المعانى المسكوت عنها فى الحديث الثانى ؛ وبها صار له هيأة وسَمْتٌ وشأن منفرد ٠

وانفرد الحديث الثانى بالأمر بالإسراع بالجنازة، وأنها تنتظر خيرا إن كانت صالحة، وهذا الخير هو الذى قالت الجنازة من أجله فى الحديث الأول: " قَدِّمُونِي "، وأن غير الصالحة شر، وأنهم يضعونه عن رقابهم، انفرد الحديث الثانى بذكر هذه المعانى المسكوت عنها فى الحديث الأول ؛ وبها صار له هيأة وسمت وشأن منفرد ٠

وبالجمع بين الحديثين تتم صورة المعنى، وهذا باب ينبغى إحكامه فى دراسة البيان النبوى والتدبر فى أسراره: لِمَ سكتَ كلٌّ منهما عما سكت، وذَكَرَ ما ذَكَرَ ؟ وهذا باب صعب المراس ٠

ومن فقه الإمام البخارى – وأكثر فقهه فى تراجم أبوابه – أنه استدل بالحديث الأول على أن حمل الجنازة خاص بالرجال دون النساء لأن الرسول ﷺ خص حمل الجنازة بالرجال دون النساء فى قوله " وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ "؛ فترجم لهذا الحديث ب " بَاب حَمْلِ الرِّجَالِ الْجِنَازَةَ دُونَ النِّسَاءِ"، ولهذ الحديث طرفان آخران فى البخارى كلاهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ؛ وبهذا يكون الحديث فى مواضعه الثلاثة فى البخارى عن هذا الصحابى الجليل رضى الله عنه ٠ وترجم البخارى له فى الموضع الثانى ب " بَاب قَوْلِ الْمَيِّتِ وَهُوَ عَلَى الْجِنَازَةِ قَدِّمُونِي " حديث رقم ١٣١٦، وترجم له فى الموضع الثالث ب " بَاب كَلَامِ الْمَيِّتِ عَلَى الْجَنَازَةِ " حديث رقم ١٣٨٠، وواضح جدا أن هذا الاستنباط ناظر إلى قول الجنازة الصالحة " قَدِّمُونِي "، وقول الجنازة غَيْرَ الصَالِحَةِ " يَا وَيْلَهَا ؛ أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا " ٠ كما وقف البخارى فى الحديث الثانى عند أمر الرسول ﷺ بالإسراع بالجنازة فى قوله: " أَسْرِعُوا بِالْجِنَازَةِ " ؛ فترجم له ب " بَاب السُّرْعَةِ بِالْجِنَازَةِ " ٠

ومن إدراك البخارى شدة التناسب بين الحديثين أن صنفهما فى جامعه متتابعين لم يفصل بينهما بحديث ولا أثر، الأول برقم ١٣١٤، والثانى برقم ١٣١٥، وهذا من حسن

فطنته رحمه الله، ومن حسن فطنته أيضا أنه رتب الحديث الثانى بعد الأول ؛ لأن الأول فيه أن الرجال حملوا الجنازة على أعناقهم، والثانى فيه الأمر بالإسراع بها، والإسراع بها لا يكون إلا بعد حملها، فالحمل أولا والإسراع بها بعده ٠

ويدخل فى التناسب بين الأحاديث: الجمع بين حديثين فى حديث واحد، ومن شواهده:

١- (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا ") (١)

هذا الحديث جمع بين حمل السلاح والغش، وجاء فى البخارى رواية تقتصر على حمل السلاح، (عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَاعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا " (٢)، والسؤال: أهذان حديثان قال الرسول ﷺ كل واحد منهما فى مناسبة خاصة به ثم جمعهما فى حديث واحد فى موضع استدعى الجمع بينهما، أم هما حديث واحد قاله الرسول ﷺ فى مقام، ثم اقتصر فى مقام آخر على جزء منه ؟ والجواب عن هذا السؤال صعب جدا ؛ لأنه يحتاج إلى تأريخ موثَّق للحديث النبوى الشريف، يذكر لكل حديث مناسبته والتاريخ الذى قاله فيه الرسول ﷺ، وهذا شاق جدا، وليس مقطوعا به إلا فى أحاديث معدودة، كخطبته ﷺ يوم عرفة ويوم فتح مكة أو فى غزوة من الغزوات ٠

وأيا ما كان الأمر فالمناسبة التى أوجدها الرسول ﷺ فى الجمع بين حمل السلاح والغش مناسبة قويه ألفت بينهما، وهى مناسبة لفظية وأخرى معنوية، أما المناسبة المعنوية فإن حمل السلاح على المسلم لاستباحة دمه عدوان على النفس، وحفظُ النفس أوَّلُ الكليات الخمس التى يجب على الإنسان حفظها ٠ والغش إن كان فى البيع والشراء – لأن الحديث كان بسبب طعام رآه الرسول ﷺ فى السوق مبتلا من داخله – فهو خداع وعدوان على المال الذى به قوام الحياة، وحفظ المال من الكليات الخمس التى يجب على الإنسان حفظها ؛ وإن كان المراد ب " غشنا " – ما ذكره المناوى من أن معناه " أنه لم ينصح من استنصحه، وزين له غير المصلحة، فمن ترك النصح للأمة ولم يشفق عليهم ولم يعنهم بنفسه وما بيده فكأنهليس منهم تسمية وصورة " (٣) ؛ فهذا يعنى الخيانة والغدر ؛ لأنه زين لهم غير الحق وشوه لهم صورة الحق ؛ فأضلهم ؛ وحجب عنهم ما فيه نفعهم وصلاحهم، وأوردهم

(١)صحيح مسلم كتاب الإيمان بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا برقم ١٠١

(٢)صحيح البخاري كتاب الديات بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى" وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا "، برقم ٦٨٧٤

(٣)فيض القدير ٥ / ٣٨٧ حديث رقم ٧٦٨٧

موارد الهلاك والفساد، وهذا سلوك أهل الخيانة والغدر فى كل مناحى الحياة فى السياسة والعلم والتعليم والاقتصاد والتربية والتهذيب والإصلاح ٠٠ إلخ، والمناسبة بينه وبين حمل السلاح على المسلمين أن كلا منهما فيه ترويع وتخويف وخيانة لأمانة الدين وحقد على المسلمين وإضرار بهم ؛ وسمعت من شيخى العلامة الدكتور محمد أبى موسى – حرسه الله تعالى – قوله: " من غش المسلمين فى شىء من العلم أو الثقافة فكأنما حمل عليهم السلاح " ٠

وأما المناسبة اللفظية فظاهرة جدا فى بناء الجملتين على حذو واحد من التركيب: ابتدأت كل منهما ب " مَنْ " الموصولية أو الشرطية، بعدها الفعل الماضى " حَمَلَ – غَشَّ "، وإرداف كل منهما بالضمير " نا " العائد على جماعة المسلمين، وهو الضمير المتصل الذى وقع مفعولا به للفعل فى " غَشَّنَا " ومجرورا ب " على " فى " حَمَلَ عَلَيْنَا "، ثم تكرار قوله " فَلَيْسَ مِنَّا " الذى أوجد مناسبة بين من حمل على المسلمين السلاح ومن غشهم، فكل منهما ليس من المسلمين، أى ليس ممن يسير على طريقة المسلمين ويتبع هديهم ويسلك مسلكهم فى الأمانة والديانة وحفظ النفس والمال ومراعاة حقوق المسلمين ٠ ولم يقل ﷺ: ومن قاتلنا فليس منا، بل قال: " مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا " ليكون الوعيد على مجرد حمل السلاح سواء قاتل به أم لم يقاتل ؛ للنهى عن ترويع المسلمين وتخويفهم، حتى يعيش الناس فى أمن واطمئنان، ولو قال: ومن قاتلنا فليس منا، لاقتصر الوعيد على من حمل السلاح وقاتل لا على مجرد حمل السلاح ٠

٢– (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " فَضْلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ " يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ " وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا")[١] ٠

الحديث جاء بالجمع بين فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح، ثم جاء كل منهما مستقلا عن الآخر فى مواضع أخرى بألفاظ قريبة من هذا، فجاء فى فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد قوله ﷺ:

– " صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً " [٢]

– " صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً " [٣] ٠

(١)متفق عليه واللفظ للبخاري فى التفسير باب قوله تعالى "وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا "، برقم ٤٧١٧

(٢)متفق عليه واللفظ للبخاري فى الأذان باب فضل صلاة الجماعة برقم ٦٤٥

(٣)متفق عليه واللفظ للبخاري فى الأذان باب فضل صلاة الجماعة برقم ٦٤٦

– " صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا"(١) .

وجاء فى اجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح قوله ﷺ:

– " يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ" (٢) .

وحين اجتمع الحديثان فى حديث واحد كان بينهما من التآلف والتناسب والتآخى ما لا نحس معه بفجوة أو بُعْدٍ أو انقطاع، بإيجاد عناصر مشتركة وخيوط ممتدة تُحْدِثُ بينهما تلاقيا وتشابكا، ومن هذه الخيوط: اشتراكهما فى معنى " الاجتماع " الذى يتحقق فيهما، لأن الاجتماع يكون فى " صَلَاةِ الْجَمِيعِ " أى صلاة الجماعة، ويكون فى اجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار فى قوله " وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ "، فالمؤمن يجتمع مع إخوانه المؤمنين فى صلاة الجماعة، وملائكة الليل تجتمع مع ملائكة النهار فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر .

ومن الخيوط: أن كلا منهما يتخذ من " الصلاة " محورا ومرتكزا للمعنى ؛ فلفظ الصلاة فى كل منهما عماد وأساس ؛ ولذا ذُكِرَ صراحةً فى كل منهما .

ومنها: أن كلا منهما فيه بيان لفضلٍ ما فى الصلاة، فالأول يبين فضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد، والثانى يبين فضل صلاة الصبح، فاشتركا فى بيان الفضل .

ومنها: تكرار ذكر الصلاة والجماعة، فإنه يقوى عرى الكلام ويؤلف بينه، تكرر لفظ " الصلاة " ثلاث مرات: (صَلَاةِ الْجَمِيعِ – صَلَاةِ الْوَاحِدِ – صَلَاةِ الصُّبْحِ)، وتكرر ما يدل على الجماعة ثلاث مرات: (صَلَاةِ الْجَمِيعِ – وَتَجْتَمِعُ – مَشْهُودًا)، ولو قيل: فضل الصلاة مع الإمام على صلاة الواحد – ما وجدت له من التلاقى والتناسب ما تجده فى " صلاة الجميع " الذى يأخذ بحُجْزَة قوله " وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ" لأن الاجتماع فيهما نسبٌ وصهر .

ومنها: هذا التضاد بين: الْجَمِيعِ والْوَاحِدِ – واللَّيْلِ والنَّهَارِ، والتضاد يحسن وصل الكلام .

وقول أبى هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – (اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ " وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا " [الإسراء ٧٨]) استدلال من القرآن الكريم على أن الملائكة تجتمع فى صلاة الصبح فتشهد قرآن الفجر، فالرباط قوى جدا بين: صَلَاةِ الْجَمِيعِ – وَتَجْتَمِعُ

(١)صحيح البخاري فى الأذان باب فضل صلاة الجماعة برقم ٦٤٧
(٢)متفق عليه واللفظ للبخاري فى مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر برقم ٥٥٥

مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ –" إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا "؛ كله يدور على معنى الاجتماع والجماعة وشهود الجماعة وشهود قرآن الفجر، فهو نسيج واحد وكلام مؤتلف جدا سواء اجتمع الحديثان أو انفردا ؛ فالنبع واحد، والكلام يهدى بعضُه إلى بعض وينتسب بعضُه إلى بعض وإن فُصِلَ عنه أو اقْتُطِعَ منه، كما قال المتنبى:

أفعالُه نَسَبٌ، لو لم يَقُلْ معها : جَدِّى الخَصِيبُ، عَرَفْنَا العِرْقَ بالغُصُنِ

إنها أرواح متآلفة: إن اجتمعت كان فى اجتماعها مزيد من التحاب والتآلف، وإن بعُدت مطارحُها وفَرَّقَتْ بينها المقاماتُ والسياقات فحبال التعارف والتآلف بينها موصولة ؛ ينادى بعضها على بعض، وتتواصل أرواحُها وإن لم تتلاقى أجسادُها .

فهرس الأحاديث الشريفة موضوع الدراسة

أول الحديث	الصفحة
إِذَا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ	٨٢٨
أَسْرِعُوا بِالْجِنَازَةِ ؛ فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً، فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا	٨٢٨
أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي	٨٠٠
أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا	٨١١
إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ	٨٤٩
إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ	٧٩٢
إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ	٨١٥
إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى	٨٠٥
إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَى أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ	٧٧٣
إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ	٨٢١
أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا	٧٨٩
تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا	٧٧٢
تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ	٨١٤
ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ	٨١٣
ثَلاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ	٧٩٦
ثَلَاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ	٧٦٩
اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ	٨٠١
الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ	٧٧١
سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ الله تَعَالَى في ظِلِّهِ يوم لَا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ	٨٠٩
الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ	٧٦٤
غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا	٨١٢

أوائل الحديث	الصفحة
فَضْلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً	٨٣١
قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ	٧٩٩
كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ	٨٠٨
لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ ؛ فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ	٨١٨
لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ	٧٦٤
لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ	٨٠٣
اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ	٧٩٥
مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ	٨١٦
مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا	٨٣٠
مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ	٧٤٩
مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا	٨١٨
مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ	٧٦٠
مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ	٧٧٠
نَسَخْتُ الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ، فَفَقَدْتُ آيَةً (أَثَرٌ عن زَيْدِ بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)	٨٢١
يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ (أَثَرٌ عن أَنَس بْن النَّضْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)	٨٢٣
يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ؛ فَلَا تَظَالَمُوا	٧٧٥
يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ	٧٧٣
الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى	٧٨٧

فهرس المراجع

– أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ت محمود شاكر ط الخانجى ٠

– إعجاز القرآن للباقلانى ت السيد صقر ط دار المعارف ٠

– الإمام البقاعى جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم د / محمود توفيق محمد سعد ط أولى ١٤٢٤ هـ٠

– البرهان فى علوم القرآن للزركشى ت محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار التراث ٠

– البيان والتبيين للجاحظ ت عبد السلام هارون ط الخانجى ٠

– تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للمباركفورى نشر عبد الرحمن عثمان ط دار الفكر.

– التفسير الكبير للرازى ط دار الفكر ٠

– الجامع الصغير للطبرانى مطبوع مع فيض القدير ٠

– دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ت محمود شاكر ط الخانجى ٠

– سنن أبى داود مطبوع مع عون المعبود شرح سنن أبى داود ٠

– شرح ابن بطال لصحيح البخارى ت ياسر إبراهيم ط مكتبة الرشد ٠

– شرح النووى على صحيح مسلم ط المطبعة المصرية بالأزهر ط أولى ١٣٤٧ هـ ١٩٢٩م

– صحيح البخارى مطبوع مع فتح البارى ٠

– صحيح مسلم مطبوع مع شرح النووى ٠

– عون المعبود شرح سنن أبى داود للعظيم آبادى ت عبد الرحمن عثمان ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة٠

– فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى نشرة محب الدين الخطيب ط دار الريان ٠

– فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرءوف المناوى ط دار المعرفة بيروت ط ثانية ٠

– الكشاف للزمخشرى ت عادل عبد الموجود وعلى معوض ط العبيكان بالرياض ط أولى ١٤١٨هـ ٠

– المستدرك على الصحيحين للحاكم بإشراف د يوسف المرعشلى ط دار المعرفة بيروت ٠

– مسند الإمام أحمد بن حنبل ت أحمد شاكر وأحمد الزين ط دار الحديث بالقاهرة ٠

– المنتقى شرح الموطأ للباجى ت محمد عبد القادر عطا ط دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م٠

– النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز ت محمد خلف الله ومحمد سلام دار المعارف

فهرس الموضوعات

مقدمة ٧٤٧

تمهيد ٧٤٩

١- تسلسل المعانى وأخذ الكلام بعضه بحُجَزِ بعض ٧٤٩

٢- تعدد وجوه التناسب فى الحديث ٧٥٦

صور من التناسب فى الحديث الشريف

الصورة الأولى: تأليف المؤتلف وتأليف المختلف ٧٦٢

الصورة الثانية: تناسب المقطع والمطلع وتناسب المعاقد ٧٧٥

الصورة الثالثة: مِلاك المعنى فى الحديث: ٧٨٦

أولا: ملاك المعنى فى أول الحديث ٧٨٧

ثانيا: ملاك المعنى جملة فى وسط الحديث ٧٩٥

ثالثا: ملاك المعنى جملة فى آخر الحديث ٧٩٦

الصورة الرابعة: التناسب بجمع الجوامع ٧٩٩

الصورة الخامسة: التناسب بشريف النظم ٨٠٥

أولا: الإجمال والتفصيل ٨٠٥

ثانيا: التكرار ٨١١

ثالثا: الطباق ٨١٣

رابعا: المقابلة ٨١٤

خامسا: مراعاة التناسب القرآنى ٨١٨

سادسا: بناء الحديث على حَذْوٍ واحد ٨١٨

الصورة السادسة: المناسبة بين الأحاديث ٨٢٠
الأنموذج الأول ٨٢٠
الأنموذج الثانى ٨٢٨
الجمع بين حديثين فى حديث واحد ٨٣٠
فهرس الأحاديث الشريفة موضوع الدراسة ٨٣٤
فهرس المراجع ٨٣٦
فهرس الموضوعات ٨٣٨